

رواية

ليلة في صحراء الكريّمات

سارة محمد عبد الفضيل

إهداء

إلى من أعادوا إلى قلّمي روح الكاتبة رواد ورشة السعادة، أستاذي
الروائي أحمد أبو زيد، أول من آمن بقلّمي، إلى كل من تتبّع كلماتي لتصل
للنور أشكركم جميعاً

أستاذة سمية، سحر عزام، ألد الحاج، مريم، خديجة، أستاذة نهلة
أسعدكم الله كما أعدتم لقلّمي فيضه من جديد

إهداء

إلى من اقترن اسمي باسمه، فظهرت حينها الهوية أنني بشر يحمل بين
ثناياه ما يحمله جميع البشر رجال وإناث
شكراً لحلمك، لحكمتك، سأظل فخورة بأني ابنتك

مقدمة

فليبقى الجميع لا يآبه حتى تهوى قدماه إلى رحلة التيه حينها يدرك قيمة
الأشياء

الفصل الأول

ضوء أحمر وأنفاس تتصاعد وممر ضيق في ذلك الطريق عليها أن تمر
منه، وإلا لن تستطيع أن تصل لغايتها، يداها ترتعش وتلك الأصوات

تهمس بالقرب منها فستانها الزهري تلطخه قطرات حمراء لا تميز من أين تأتي وما هي

هي فقط تترقب بعيونها ذلك النسيم الذي يجوب حولها في كل خطوة تخطوها، تتقدم خطوة وقدميها ترتجف شعرها الأسود الطويل يزيد من توترها كلما التفت للخلف كي ترى من يتعقبها

لا زالت دقات الفؤاد تتصارع لكن يقيناً بداخلها جعلها تندفع في قوة لا تشغل بالاً بما يحيط بها، خطوات ثابتة حتى وصلت ذلك الممر انتفضت من ظلمته، لكنها تماكنت قواها وهمست

- سأغمض عيني وأمر من ظلماته، وسيأتي النور حتماً

أغمضت عيناها بشدة وبدأت في أولى خطاها نحو الممر المظلم، وانتفض جسدها على يد تلامسه، فتداخلت معها الأصوات وحاولت أن تفتح عينيها لكن ذلك النور الأبيض قد اخترق عينيها وأصابها بشدة وبدأت تتحسس ذلك المكان التي تجلس فيه علها تدرك ما يحدث

لمس ناعم، هل هو دب، فسمعت صوتاً مألوف يهمس بالقرب منها -دب، لا تقلقي عزيزتي، إنها البطانية، من الواضح أنك قد ألفت ذلك الحلم حتى صار جزءاً من ليلك -من، أمي؟

ارتخت ثرية مرة أخرى على السرير وهي تضرب بيدها على رأسها مرة أخرى يا أمي

-عليك أن تتجاهلي التفكير في الأمور السيئة، تمحي الخوف من حياتك فلن تعيشين تلك الكوابيس مرة أخرى

أغمضت ثرية عينيها مرة أخرى وبدأت في التجول بعيونها حول الغرفة تتأمل أخوتها النائمين، وسريرها الذي لا تشعر بالراحة سوى عليه حينما تشعر بأنفاس أختها ليلي

وتتأمل وردة وهي تحتضن أختها الصغرى فريدة، في ذلك السرير المجاور لهما لا يفصل بينهما سوى ذلك الممر الصغير، في غرفتهم التي تمثل لهم الحياة

جدرانها المتهالكة التي لازالت ترسم آثار زلزال عام 92، لم تمنعهم أن يحيوا طفولتهم فكم تمتعوا باللعب حول تلك الستائر الوردية التي حاوطت بها والدتهم الغرفة بالكامل

يختبئون وراءها حتى يأتي أحدهم ويكتشف وجودهم، شردت ثرية لعدة دقائق وأمها لازالت تجلس بجوارها تحاول أن تطمأنها تحاول أن تزيل عنها ذلك الخوف الذي بات يلاحقها منذ الصغر

منذ أن كان عمرها عامان حينما اهتزت الأرض من تحت أقدامها كان كل شيء يتحرك من حولها، تركوها نائمة وكانوا يجلسون في غرفة أخرى، فلما شعرت بتلك الهزة صرخت فهرولت الأم نحوها والجميع يحاول أن يدفعها نحو السلم كي تنجو لكنها أبت أن تتركها ظلت ثرية تمسك بتلك الملائة عليها تنجدها من ذلك الكابوس

لكنها دفعتها بقوة إلى الأسفل فازداد صراخها لكن أمها تخطت كل تلك الهزات التي كادت تؤدي بحياتها، تلك الأشياء التي تقع وتتهشم من حولها وتلك الجدران التي تكاد تتساقط الواحدة تلك الأخرى

ارتمت نحو طفلتها الصغيرة فخبأتها بين ذراعيها وانحنى عليها حتى إذا سقط البناء لم يصبها مكروه، تذكرت ثرية كل تلك الأحداث التي يصعب على طفلة في سنها تذكرها واقعة مر عليها أكثر من عشرين عاماً

لازالت راسخة في ذهنها، لاتزال أمها تتأمل ملامحها وتربط على يدها

-هيا لقد انتظرت الكثير حبيبتي لا داعي للمزيد من التفكير، انهضي وكفي عن ذلك الهراء، لازال أمامك حياة تناديك شمسها كي تبدأ من جديد

نهضت الأم وبدأت في إيقاظ البقية بحنان

-هيا يا فتيات لقد تأخرتن كثيراً اليوم، كفاكم كسلاً

علا هي امرأة تبلغ من العمر الخامسة والأربعين، لازالت تتمتع بشباب
امرأة في العشرين من عمرها، بشرتها البيضاء ووجنتيها التي تصير بلون
الورود حينما تأتيها السعادة، أو ينتابها الخجل لا يتغير لونها في ذلك
الشتاء القارس

قامتها القصيرة وعينيها الحادتان جعلتا منها شخصية حاسمة قوية، لا يمكن
أن تكسرها متاعب الدنيا، يتمايل على كتفيها ذلك الشعر الحريري شديد
السمرة، بملامح طفولية تجعل منها كل النساء في امرأة واحدة

توجهت علا إلى الثلجة المجاورة لأسرة الفتيات وهي لا زالت تلوح
وتنادي عليهم حتى يهيموا بالنهوض، ثرية تحاول أن تخفي تلك الدموع
التي تساقطت من عينيها حينما ظلت تفكر بذلك الخوف الذي يحيط بها
حتى في لحظات نومها، لكنها باتت تفكر لماذا صار متكرراً في تلك الأيام
رفعت عن جسدها تلك البطانية وفت شعرها الأسود الحريري الذي لامس
خصرها، ثم نهضت تنظر في تلك المرأة تلامس بيدها ملامح وجهها
الأسمر وملامحها الشاحبة التي أهلكهما التفكير، عينيها التي كادت تختفي،
وشفتيها اللتين كادتتا يتلاصقان من كثرة الصمت

التفت أمام المرأة علها تجد ما يدعو للأمل، فوجدت قوامها الممشوق ينادي
بحزم، أيتها الأنثى، فلتحيي حياة الأميرات
أشارت إليها والدتها وهي تغلق باب الثلجة

-أنظري إلى عينيكم كم أهلكهما التفكير ألم تشكو إليكم أنها تريد نوماً عميقاً
حتى تقوى على الحياة، لن تنال إلا قدرٌ قد كتبه الله لك وفي قدره الخير
الكثير

ابتسمت ثرية واقتربت من أمها هامسة

-إن لم تركزي في تلك الأطباق التي تحملينها فسوف تنكسر وتصدر صوتاً
مدوياً يفزع أبي ويصرخ في وجوهنا جميعاً، وحملت عنها بعض تلك
الأطباق وتوجهت إلى المطبخ

تعالّت ضحكاتهم فأيقظوا وردة فأشرقت عينيها على ذلك الضوء الأبيض،
تنثاءب وهي تنظر في ساعتها لازال الوقت مبكراً لم تتعدى السابعة، لكن
تذكرت وردة أن اليوم هو الجمعة كيف لها أن تنام للمزيد من الوقت، اليوم
هو إجازة والدها عليها أن تستغل ذلك اليوم كي تمضيه معه

لم تلبث أن رفعت تلك البطانية ببطيء تشعر بذلك النسيم يتخلل جسدها
رغم تلك السجادة التي تغطي أرض الغرفة، لكنه ديسمبر ذلك السقيع لا
يتوانى عن تخلل جدران المنازل

لا يفرق الجمعة عن غيره سوى وجود والدها، فجميع الأيام تملأها الفراغ
بعد أن تخرجت وردة من كلية الحقوق، لازالت تجلس في المنزل منذ
عامين، لا عمل لا هواية هي فقط تساعد أمها في المنزل، أو تشاهد التلفاز

تتعجب من أمر ثرية حينما تجدها شغوفة بالعلم حتى بعد أن تخرجت لا
يشغل بالها ذلك التلفاز ولا تلمع عينيها على أزياء الفاتنات في مسلسلات
هي تراها بالية أحداثها متكررة، لا إبداع فيها

ثرية تعشق القراءة وتتمسك بذلك القلم الذي ينبض منه قلبها، وتصادق تلك
الأوراق، تظل تحاورها دون كلل، لا تشغل بالاً بتلك التجمعات والخروج
المتكرر هي فقط تريد أن تختلي برائحة الكتب وحروفها المذهبة بالنور

وردة تتركها بين تلك الكتب التي تتراكم من حولها تنسقها كل يوم تجعلها
على وسادتها وكأنها تطمئن لوجودها، وتحاول أن تملأ ذلك الفراغ بين
قنوات التلفاز والخروج مع صديقاتها، تذهب للمسجد لتحفيظ بعض
الأطفال للقرآن الكريم

تتمتع وردة ببشرة بيضاء وقامة قصيرة، وشعرها القصير المجعد، عيون
زرقاء كبحر صافٍ، وشعر بني، ميزوها عن باقي بنات العائلة اللائي
يتمتعن ببشرة سمراء

نهضت وردة بعد أن قاومت ذلك النسيم، لكن أختها فريدة حينما شعرت بها
تنزل من السرير نهضت مسرعة وهولت إلى أمها، فريدة التي لم يتعدى

عمرها الأربع سنوات بتلك القامة القصيرة وشعرها الحريري الطويل
وبشرتها السمراء وعينيها البنيتين

تلك الفتاة التي لم يكن في الحسبان أن تأتي إلى عالمهم، لكن ذلك العرف
السائد في العائلة حتم على أبيهم أن يفكر في المزيد من الأطفال لعل الله
يشاء له بالولد، الذي يرثه ويحمل اسمه، هكذا أنتت معاندة لأعرافهم
الساذجة، " التي وأدت وجود البنات وهن أحياء " ، لتكون لهم كل الحياة،
كل السعادة، كيف لا وهم لا زالوا يهرولون وراءها كالأطفال

داعبت يد أمها ثم هرولت كي توقظ ليلي التي لم تستيقظ بعد، قامت وردة
بتنظيف السرير وفريضة تداعب وجه ليلي السمين وتشد في خصلات
شعرها المجعد حتى توقظها ووردة توبخها وهي تضحك

-بدلاً من أن تضايقي أختك هكذا هيا رتبي تلك اللعب التي تراكمت على
وسادتك، هيا يا فريضة

لم تترك فريضة ليلي حتى صرخت في وجهها

-ابتعدي، ابتعدي لقد أمتني كثيراً تلك المرة

فلما شعرت فريضة بأن أختها كادت أن تبكي من شدة الألم اقتربت منها
ولامست وجهها بأناملها الصغيرة وقبلت جبينها

-لا تغضبي يا ليلي أنا فقط أمارحك هيا لقد أستيقظنا جميعاً، وأنت لازلت
نائمة

-أتركيني أريد أن أكمل نومي يا فريضة

علا – دعيها يا فريضة هي لا تعلم بأن والدك لازال نائماً واليوم هو الجمعة

انتفضت ليلي، نظرت في شاشة الهاتف الذي تضعه دوماً تحت وسادتها

ثم توجهت نحوهم

-لماذا لم توقظوني منذ البداية

وقفت بقامتها القصيرة وجسمها السمين تحادث والدتها، بوجهٍ غاضب

-لم أوقظ أحد، ثرية استيقظت حينما أشعلت المصباح

ذهبت كي تغسل وجهها وتتوضأ للصلاة، تصلي وتبكي في سجودها
كعادتها تدعو الله أن يملأ فراغ حياتها الذي لا ينتهي، لم يعد ترتيب المنزل
مع أخوتها وطهي الطعام يأخذ سوى ساعاتٍ قليلة

وماذا عن باقي أيامها التي صارت متشابهاً، كيف لها أن تقضيها، لقد مر
ثلاثة أعوام منذ أن اجتازت المرحلة الإعدادية لم يحالفها الحظ أن تحصل
على درجات تؤهلها للثانوية ففضل والدها أن تمكث في المنزل

خروجها ضئيل، حتى أصدقائها انشغلت كلٌ منهم في دراستها، أو بيتها،
أما هي لازالت تحادث جدران تلك الغرفة التي لا تمل من كلماتها
ودموعها المنهمرة ليلاً

حتى أخواتها لكلٌ منهم ما يشغلها حتى فريدة صغيرتهم، لكن هي بلا حياة
بلا هدف فقط تعيش لأن عليها أن تعيش، أدت ليلى فريضتها ومسحت عن
عينها تلك الدموع وذهبت كي تساعد أخوتها

توجه والدهم محمد نحوهم بابتسامة وبشرته السمراء اللامعة، قامته التي
أكسبها العمل في البناء القوة والرشاقة، حتى يشعر بأنه أحد الفراعنة
القدامى بذلك الشعر المجعد

-لماذا أسمع صراخك في هذا الصباح الباكر

-صباح الخير يا أبي

-صباح الخير يا فتيتي

ارتمت فريدة بين أحضانه فحملها بين ذراعيه وقبلها ضاحكاً

-وأنت هل قمت بمساعدتهم، وماذا عن الإفطار هل صار جاهزاً

نظرت إليه علا في ابتسامة

-لازلنا نعد الطعام حبيبي دقائق معدودة وسيكون جاهزاً

-هيا سأقوم أيضاً على مساعدتكم أحضروا لي أغراض السلطة وسأقوم بإعدادها

فردت وردة قائلة

-أرءيت يا أمي سنأكل أجمل سلطة اليوم من يد أبي

- فقالت أكيد يا وردة

جميعهم يقوم بعمله فمنهم من يساعد الأم في المطبخ ومنهم من ذهب لترتيب المنزل حتى لا يضيعوا أي وقتٍ بعد ذلك بعيداً عن التحاور مع والدهم

تأتي فريدة خلصة فتقف على أطراف أناملها الصغيرة حتى تتمكن من أخذ قطعة فلافل من التي قامت وردة بقليلها فتمد يدها تخطفها وتجري تختبأ بين أحضان أبيها

والآن حان وقت الطعام تجلس فريدة فتدق بملعقتها الصغيرة على الطبلية، حتى وضعت كافة الأطباق وبدأوا في تناول الطعام

تناولوا في صمت أمام التلفاز على تلك القناة التي يُفضل محمد أن يشاهدها وخصوصاً في يوم الجمعة، رفع الطعام ثم نهضت ثرية كي تُعد الشاي

-أمي أين الشاي والسكر

فردت أمها

-ستجدينهم على الرف الأول جهة اليسار بجوار فلتر المياه

فأعدته ثرية بسرعة وأحضرت الشاي وبعد أن تناوله محمد

طلب من ليلي أن تحضر له وسادة كي يتكأ عليها فأتكأ على وسادته وهو ينظر إليهم في ابتسامة وهو يردد

-لقد أنهيت عملي هذا العام وما تبقى من عماراتٍ سأتركها لصديقٍ لي،
وقد صرتم الآن بدون أي التزامات هنا في القاهرة، وكم أشتاق لذلك
الصفاء الذي أجده في قريتي بالصعيد فقد قررت أن نسافر سوياً كي
نستريح من ضوضاء القاهرة

- "نظروا إليه في عجب"، ولكن يا أبي

-لقد قررت وأنتهى كل شيء أعدوا أمتعتكم وكل شيء ستحملوه معكم إلى
هناك لازل أمامكم سبعة أيامٍ أخرى فالسفر سيكون في الجمعة القادمة
نظرت إليه وردة في حزن،

- أبي لقد وعدتنا بالسفر إلى الإسكندرية كي نزور أخوالي وخالاتي، أعلينا
كل إجازة أن نذهب إلى الصعيد ونحترق بشمسه التي لا ترحم
نظر محمد إليها منتظراً رأي باقي أفراد الأسرة، نظرت ثرية إلى أبيها في
ابتسامة، هو يعلم ماذا تعني

- فرد قائلاً من الواضح أن هناك من يؤيد رأيي

فنظرت وردة ولى إليها في غضب

-لماذا تحبين هذا المكان يا ثرية هكذا تسعدين كلما حان موعد سفرنا إليه
ما هي مميزاته كي تحبينه كل هذا الحب، نظرت إليهم علا محاولة تدارك
الموقف يا فتياتي عليكن الهدوء

فهناك الأهل والعشيرة، والأرض التي يتمتع بيها النظر وتصفو بها النفس،
وهناك يمكننا أن نستريح مما نعانيه طيلة العام حتى وإن زادت هناك
الحرارة، أنظروا إلى ذلك النسيم المتهافت حول الحقول، وذلك المنظر
البديع الذي يطل عليه منزلنا

أنظروا "وتشير إلى المنزل"، كم نعيش بحرية مقيدة في هذا المنزل،
أين هي شرفتنا، تطل في نفس الوقت على شرفة أخرى، لولا تلك الستائر
الثقيلة بنية اللون لاستطاعوا أن يروا غرفتك في آخر الشقة

أرئيتكم كم نعيش في ضيق حين يحضرنا ضيف فهم يجلسون في الأنترية
أو في الصلاة أمام التلفاز وأنتم تظلون بالداخل حتى يرحلون

أنتمتعون بهذا المنزل الذي لا يحتوي سوى غرفتين، وصالة، ولا تريدون
أن تذهبوا للمنزل الذي يجلس كل منكم في غرفة منفردة، ما هذا الهراء.
ذلك الحوار يدور حول فريدة وهي تلف حول أبيها فرحة "وأنا أيضاً يا
أبي أريد أن أذهب معكم"

فضمها محمد ،

- لا تقلقي صغيرتي فأنت أول من سيسافرون معي

لما رأى محمد بأن الحوار سيفيض جداً واسعاً بينهم ، نظر إلى ثرية

- يا ثرية قومي بكى جلبابي كي أستعد للذهاب لصلاة الجمعة

فنهضت مسرعة وقامت كي تلبي رغبت والدها

الفصل الثاني

رحل محمد وترك ذلك الصمت يخيم على الأجواء، فريدة تلهو كعادتها،
وليلي تركتهم وذهبت للغرفة، وردة لا زالت مصرة على أن ما تفعله ثرية
هو ما يعين أبيها على السفر دوماً إلى الصعيد

كسرت وردة حاجز الصمت وهي تحدث ثرية في حزم

-ثرية، من المؤسف أن نذهب في هذا الوقت من العام إلى هناك لماذا لا
نذهب للتمتع بالشتاء في الإسكندرية،

ثرية/ ببساطة يا وردة لقد قرر أبي، أنت تعلمين كم يعشق أبي تلك
الأرض وتريح نفسه، فعلينا ألا نجادله كثيراً، حتى لا يعتقد أننا لا نريد
رؤية وزيارة العائلة

صمتت وردة وهمت غاضبة إلى الغرفة ولكنها أغلقت النور الذي أشعلته
ليلي، وردة رغم أنها الأخت الكبرى، إلا أن مشاعرهما المرهفة، جعلت
منها أنثى تحمر جمالاً حتى في وقت غضبها
دموعها القريبة جعلتهم جميعاً يعاملونها بلطف ، لكن الكل ينحاز لما يريد،
الأم لازالت تشاهد التلفاز،

ثرية / أمي لم يعطنا أبي فرصة كبيرة لإعداد العدة من أجل الرحلة
نظرت علا إلى ثرية مبتسمة،

- لا عليك سنقوم بالمهمة بإذن الله، أحضري لي فقط ورقة كي نكتب
المشتريات اللازمة أنت تعلمين أننا منذ أن تركنا المنزل منذ أربعة أشهر
لم يفتحه أحد

،ويلزمنا الكثير من الأشياء كي نتمكن من الجلوس هناك، دون الحاجة
للذهاب كل مرة للمحال لشراء ما يلزمنا

- ولماذا لا نكتفي بحمل حقائب ملابسنا ونشتري ما يلزمنا من هناك يا أمي
نظرت لها في ابتسامة،

- ألا ترين تلك الصحراء المحيطة بنا حبيبتي إننا نعيش هناك في القرية
التي تبعد آلاف الأميال عن مدينة أسيوط، يلزمنا سيارة أخرى كي نقلنا إلى
السوبر ماركت والأسواق، ولن نجد كل ما نريد

إنها القاهرة يا ثرية فرغم كل معاناتنا هنا وتلك العشوائية التي صرنا
نعيش فيها فإننا نجد كل ما نريد في أي وقت شئنا
- ومتى سنبدأ في شراء المستلزمات،

- حبيبتي ، اليوم هي إجازة أبيك علينا أن نشعره بالراحة ونجلس معه،
وغداً بإذن الله سنقوم بالبدأ في التجهيزات

علم والدهم بمدى غضب بناته من القرار فظل بالخارج حتى حان وقت العصر،

- أمي

- نعم فريدة

- لماذا تأخر أبي كل هذا الوقت

- لا أعلم بنيتي ربما ذهب لملاقة أحدهم على المقهى المجاور للمنزل

- لا يا أمي أنا لا أريد لأبي أن يذهب هناك

كلمات فريدة ذكرت أمها بتلك الواقعة التي سببت لهم المزيد من الألم، حيث فقدن فتياتها عمهم محمود عند إحدى تلك المقاهي

كانت تلك المقاهي شئياً قد اعتدوا رؤيته في حيهم، ربما كل شارعين تجد مقهى

يلتف حوله الشباب الذين صاروا يعيشون كالخفاش يسهرون طيلة الليل يتسامرون ويلعبون الدومينو أو الكوتشينة، مع تناول تلك الخمر من النوع الرديء التي صارت من المعتاد رؤيتها على نواصي الحارات المجاورة

وتتصاعد أدخنة تلك السجائر التي يحمل كلٌ منهم واحدة، تفوح منها رائحة كالمخدر، تجعل وجوههم مليئة بالسعادة، يظنون يمرحون ويتراقصون حتى تنقلب الأمور رأساً على عقب،

وتبدأ أجسادهم تتهاوى ، ويلفظون بكلماتٍ لا يفهمها أحد من المارة، ويرفع كلٌ منهم سلاحه الأبيض، وربما مسدس صغير يحمله دوماً كي يتباهى ويخيف أصدقائه فيطلقون عليه، أنه فتى قوي لا يهمله أحد

يرفعون أصواتهم وبدلاً من أن تتصاعد ضحكاتهم وتسري في هذا الليل الساكن، إلا أن كلماتهم تلك تحولت في برهة إلى سبٍ بكل ما عرفوا من بذيء الألفاظ، وبدأت أيديهم تلوح بذلك السلاح نحو وجوه الآخرين ثم يأتي أحدهم فيضرب طلقة في الهواء كي يهدأ الموقف

ففرع سكان الحي وأثار حفيظتهم، كيف لشخصٍ دخيل أن يخترق منطقتهم ويرفع سلاحه على أرضها، يا له من قانون ليته يطبق في عالمنا، ليتنا هيمننا على أرضنا كما يهيمن عليها هؤلاء السكان

نزل سكان الحي الذي ضُربت فيه الطلقة متدافعين، واحداً تلو الآخر، منهم من ارتدي ملابسه ونسي غلق أزرة القميص، ومنهم من لبس الجلباب على ظهره، ومنهم من لازالت آثار النوم مشعة من وجهه، أكثرهم غضباً سيد الرجل الذي نزل من شقته حافي القدمين بوجهٍ عبوسٍ غاضبٍ حول بشرته من لونها الأبيض الشاهق إلى أحمرٍ كالدم

لقد أيقظت تلك الرصاصة صغاره ولازالوا يصرخون في الأعلى، حاولت زوجته الإمساك به لكنه رفض ودفع يدها ونزل مسرعاً

جسده الضئيل جعله يتدحرج على السلم مسرعاً، حتى كاد أن يوقع بقية الجيران أمامه، أزاح البقية التي وفقت أمامهم تشاهد في صمت، وبدأ

يصرخ في وجوههم وقد تشابكوا جميعاً وبدأوا في تكسير تلك الكراسي الخشبية التي وضع صاحب المقهى أغلبها بالخارج لصغر المقهى فهو لا يحتمل بداخله سوى أربعة مناضد محاطة بالكراسي

سيد / أيها السذج ماذا تفعلون وأطلق مسدسه في الهواء حتى دوت منه رصاصة كأنها اخترقت السماء، فخيم الصمت على المكان وبدأوا يتوجهون إليه هو كي يكملوا الشجار معه

لكن مرور تلك السيارة نصف النقل المحملة بالأخشاب أنقذت الموقف، فقد ظل صاحبها يشير إليهم بالرجوع للخلف كي يعبر لكنهم أصرروا على إكمال شجارهم، حتى أوقف سيارته ونزل هو وشخص آخر ذلك السائق فتحي كان قوي البنيان ذو لحيةٍ قصيرةٍ وشعرٍ ناعم، وبشرته السمراء اللامعة كانت تتصبب عرقاً من كثرة غضبه مما يفعل هؤلاء الصبية

لكن محمود الذي لم يبلغ من عمره العشرين عاماً، ذو الجسد النحيل والبشرة البيضاء، وذلك الشعر المجعد، أمسك بيده حتى لا يتقدم نحوهم

لكن فتحي دفع يده بشدة

فتحي / أتركني يا محمود فقد فاض صبري منهم، هو يندفع إليهم وهم لا زالت أصواتهم تعلو أمام ذلك الرجل الذي رفع السلاح في وجوهم لا زال يصيح كيف تجرؤن على إزعاج الآخرين والشجار واطلاق النيران في هذا الوقت المتأخر من الليل، أقد بليتيم البرود، ألا تدركون أن هناك مرضى إذا قلقوا في منامهم لن يستطيعوا النوم مرة أخرى

ألا ترون أن هناك رضع أمهاتهم لا تنام سوى تلك الساعات القليلة من الليل، ألا ترون تلك الأنوار المضيئة للطلاب التي ظلت تذاكر حتى الآن، ماذا بكم، أليس ورائكم أعمال في الصباح

رددوا بسخرية، وإذا كنا قد حصلنا على عملٍ، هل لنا بمكان هنا

دفعهم فتحي بشدة وهو يردد

فتحي / أتركهم لي يا عمي وعد إلى نومك أنت، إنهم يحتاجون أن يستفيقوا حمل جردل مياه كان صبي المقهى يغسل فيه الأكواب ورشه فوق رؤوس هؤلاء السكارى

فأثار حفيظتهم، واتجهوا نحوه مندفعين بشدة وكلٌ منهم يحمل سلاحه يلوحه في وجه هذا السائق وصديقه محمود يحاول أن يدفعهم بعيدا عنه وذلك الرجل لا زال يحمل مسدسه الذي لم يطلق منه سوى طلقة واحدة لا زال يهددهم

سيد / ابتعدوا عنه أيها الصبية

لكن في أيدي الجميع اما سلاحا أو قطعة خشبية من تلك المتبقية من الكراسي التي قاموا بتهشيمها، هددهم أكثر من مرة لكنهم لا يتراجعوا لا يتوانوا عن ضرب محمود والسائق بالأخشاب التي يحملوها

حتى ردد سيد – إذاً أنتم تستحقون

صوب سيد نحوهم مسدسه فدفعوا هم بمحمود بعيدا عن صديقه فتحي فاخرقت تلك الرصاصات صدره ولما سالت دماؤه وسقط بينهم هرول

الجميع مسرعين بعيدا عنه، وجلس الرجل على ركبتيه وفتحي يضم
محمود بين ذراعيه ويصرخ

فتحي / لماذا تركتني يا محمود، لماذا يا ليتني لم انزل من السيارة، يا
ليتني لم أتي إليك في هذا الوقت المتأخر
الرجل يبكي بجواره

سيد / لم أقصدك أنت أيها الولد، يتحسس دماؤه ويدها ترتعشان، ويبكي، لا
يملك من أمره شيء

فتحي / هل قد أصبت بالعمى أيها العجوز وأنت تصوب نحوه، غامرت
بحياته برصاصة طائشة لصبية لا يستحقون حتى ثمن رصاصتك، دفعت
ثمنها بروح صديقي

الرجل يجهش في البكاء

سيد / أعذرني يا ولدي

فتحي وهو يصرخ / أعذك، هل أنت مجنون، لابد لك أن تعاقب على
فعلاتك هذه، سأتصل على أخيه كي يعلم بما حدث

سيد ينظر في حزنٍ

سيد / يا ولدي لم أقصد، كنت فقط أريد أن أوقف هؤلاء الصبية الذين
أصيبوا بالبرود والبلطجة

فتحي وهو يحتضن محمود ويهز جسده ويبكي

فتحي / لكنك صوبت نحوهم المسدس بغرض أن تصيب أحدهم، في كل
حالاتك ستعاقب

سيد / لقد كنت أدافع عنك وعن صديقك

فتحي وهو يغمض عينيه في أسي / لقد أوديت بحياته يا رجل

وأطلق صرخة أصدرت دويًا في الحي بأكمله، حتى تيقظ الجيران وبدأ
الشارع في الازدحام بالناس، لم يقوى فتحي حتى أن يحقق تهديده ويتصل
بمحمد أخو محمود

لاحظ الفتيات شرود والدتهم، فصاحت فريدة

- أمي، إلى أين شردت يا أمي

- لا شيء يا فريدة لا شيء

خيم الصمت على الجميع، لا يعرفون أين ذهب والدهم ولما تأخر كل هذا
الوقت، حتى دق جرس الباب، فهرولت فريدة كي تفتح، لكن قامتها
القصيرة لم تعينها على لمس مقبض الباب فهرولت ليلي كي تفتح الباب
فإذا به محمد،

-أبي لماذا تأخرت كل هذا الوقت،

ثم أرتمت فريدة بين أحضانه

-أبي، لقد قلقنا عليك كثيراً يا أبي.

-لا داعي للقلق حبيبتي، جلست مع بعض الأصدقاء نتحاور فمر الوقت
سريعاً، أنظري ماذا أحضرت لكم

نظرت فريدة مبتسمة، ثم خطفت من أبيها تلك الحقيبة التي يحملها في يده،
فأغلق الباب وهو يضحك

-انتظري، إنها لكم جميعاً

فتحت فريدة الحقيبة ، فوجدت أنه أحضر لكل منهم قالب شكولاتة من
الحجم الكبير، لعله يسترضي من غضب من قراره.

فنادت أخواتها

-ثرية، وردة، أنظروا ماذا أحضر لنا أبي

وبدأت تجري في الشقة، وهن يحاولن اللحاق بها،

-هيا يا فريدة، لقد قُطعت أنفاسنا

فلما تركوها وجلسوا جميعاً بجوار أبيهم ، ذهبت فأعطت لأمها أول قطعة وقبلتها، ثم أعطت لكل منهن قطعها، ثم بحثت عن قطعة أبيها، فذهبت إليه متسائلة

-أبي أين قالب الشكولاتة الخاصة بك

فابتسم قائلاً

- حبيبتي ألا ترين كم تهشمت أسناني بالقدر الذي لا يسمح لي بأكل الحلوى

فأشارت فريدة إلى فمه وبدأت تفتحه كي تتفحص أسنانه، بيدها الملطخة بالشكولاتة ووجهها الذي انغمست ملامحه بلونها البني السائل

- نعم يا أبي لم يعد لديك الكثير منها، ولكن كل هذا من تلك السجائر التي تتناولها يومياً، وفي كل وقت

كلماتها جعلتهم جميعاً يضحكون بشكل هستيري، تلك اللهجة الطفولية الحاسمة، ثم صمتت الأم قليلاً وقالت

- فريدة هيا عزيزتي عليك الآن أن تبدلي تلك الملابس التي لتخطها بالكامل وتغسلي يديك ووجهك، ثم تذهبي للعب في غرفتك

- اذهبي معها يا وردة

-حاضر يا أمي

استدارت علا وكأنها تريد أن تتحدث مع زوجها قليلاً

- محمد

- نعم عزيزتي

-هل فكرت ملياً في السفر في ذلك الوقت، ألم تعلم أن لذلك الأمر عواقب لا حصر لها

-وضحي ماذا تقصدين

-ألا تدرك بأن والدتك من بعد مقتل أخيك لم يعد لديها سوانا، كيف لنا أن نتركها ها هنا في هذا المنزل بمفردها

نظر محمد إليها في عجب

- أختي في المنزل المجاور لنا كيف لنا أن نتركها بمفردها إذا

- لأختك التزاماتها، ولن تستطيع أن تحضر كل يوم لزيارة والدتك

- وما الحل إذا ؟

- إما أن نظل بجوارها، أو أن نصطحبها معنا

صمت لبرهة، ثم قال

- دعيني أفكر في الأمر

استطاع أن يقلل من حدة الموقف فيما بينهم، فبدأ الجميع يتريث كي يفكر في هدوء، فذهبت وردة ببراءتها المعتادة

- أبي

- نعم حبيبتي

- أريد منك طلباً صغيراً

- تفضلي

- أريد أن نذهب لزيارة عائلتنا في الاسكندرية، ونستمتع بالطقس هناك

- ومن قال لك أنني معترض على هذا

-أنت محق يا والدي

- نعم عزيزتي محق

فبدأت الابتسامة ترسم على وجه وردة، فأكمل أبيها قائلاً

- سندهب عزيزتي ولكن بعد عودتنا من رحلة الصعيد

صاحت وردة فرحة، وقبلت يد ابيها

- شكرا لك يا أبي

ثم دخلت إلى غرفتها مهرولة

- أرعيت يا ثرية لقد وعدني والدي بأننا سندهب إلى الاسكندرية هذا العام

- أعلم يا وردة بأن أبي لن يسمح ببكاء أحد منا أو أن تنام إحدانا مهمومة حزينة

ثم نظرت إليهم ليلى بمقت

- لقد وافق أبي على رغبة كل منكم، أما أنا فأريد أن أظل هنا في غرفتي

لا أحب الصعيد ولا الاسكندرية

ابتسمتا ثرية ووردة على طريقتها وحديثها

-وردت وردة

- ماذا بك لا الوجه البحري ولا القبلي، لا تريدين سوى العاصمة

- إنها المحروسة يا وردة

تعالى أصوات قهقهاتهم سوياً

وظل والدهم يفكر في صمت أمام التلفاز، ثم نظر إلى زوجته

- اليوم أخبريها بأنها ستسافر معنا حتى تعد حقيبتها، واصطحبيها إلى

السوق لعل أعصابها تهدأ قليلاً عن تلك الحالة

ابتسمت علا ،

- لا تقلق عزيزي سأجعلها تبتسم، هي فقط تحتاج حولها من تشعر معه

بالعائلة، وخصوصاً، أن أخيك محمود رحمه الله، كان أكثر من يشغل بالها

فهو الأصغر بينكم جميعاً

تمتم محمد بكلمات لم تفهمها زوجته، "لا بد ألا تعرف بأمر تسامرنا كل ليلة"

- ماذا تقول يا محمد

- لا شيء

نادت على ليلي في دهشة، "ليست المرة الأولى التي تلحظ سرحان زوجها وتمتماته المتكررة"

- هيا أبلغني جدتك بأنها ستسافر معنا يوم الجمعة

- حاضر يا أمي

نزلت ليلي، لم تلبث بضع دقائق حتى عادت مسرعة أنفاسها متلاحقة

-أبي

-ماذا بك بنيتي

-عمتي مريم، عمتي مريم يا أبي ...

الفصل الثالث

ليلي أنفاسها تتسارع لا تقوى على أن تلقي كلمة لوالدها، لماذا تفرع هكذا لمجرد وجود عمته مريم

محمد / ماذا بك يا ليلي، ما بها عمتك مريم، ولماذا تهرولين هكذا على السلم

تلتقط ليلي أنفاسها وتدخل لتسند على الجدار وترتشف بعض قطرات من الماء ثم تلتف لأبيها

- لقد نزلت كما أمرتني أمي وحينما دخلت لشقة جدتي وجدت عمتي مريم تبكي بشدة، سلمت عليها، وهرولت لأخبركم لأن جدتي جلست تبكي بجوارها

هرول الجميع للنزول كي يعلموا ماذا حل بمريم، تلك المرأة التي لم تتعدى من عمرها السابعة والعشرين، بشرتها السمراء تحكي ألف حكاية عن جمال ملكات مصر القدامى، هي تشبه نفرتيتي

في تلك القامة وشعرها الأسمر الطويل الذي أسدلت عليه ذلك الحجاب، رأسها الشامخ، وعينيها السوداوين، خصرها الفاتن

هي تقطن في ذلك المنزل المجاور لمنزل أبيها لكنها قليلاً ما تأتي لزيارتهم، هكذا فرض عليها زوجها محسن، تلبية لرغبة والدته، عاشت مريم سنواتها الخمس في منزله تخضع لأوامر تلفظها الأم ثم تنفذ في الحال

لم تستطع حتى أن تحضر كل يوم حتى تشعر والدتها بالونس الذي افتقدته منذ أن فقدت زوجها وأبنها محمود، هي فقط ساعة كل عدة أيام ثم تذهب لأجل تلبية ما تريد الحماة

لم تعد والدتها تقوى على الشجار المتكرر لأجلها فقد فقدت كل شيء مع آخر أنفاس تصاعدت من محمود، هي فقط تصلي وتبكي تدعو الله أن يرحمه، ويسكنه جنان حُرْم من متاعها في الدنيا

أم محمد هي سيدة تجاوزت من العمر السبعين عاماً، هامتها التي ورثها عنها محمد تجعلك للوهلة الأولى تحسبها ملكة بعيونها الخضراء وشعرها الحريري، بشرتها التي يخجل منها القمر

تجاعيد الوجه التي لم تنل منها الكثير فوجهها الصغير قد جعل منها امرأة اربعينية تنافس زوجة أبنها وبناتها في جمالهن

لكن سنواتها الأخيرة غيرت كل شيء فتلك الابتسامة التي كانت تنير منزلها، يشعر معها الجميع بالألفة والسكن، قد تلاشت شيئاً فشيئاً، ولدها الراقد تحت الثرى الذي أفقدته رصاصة غاضبة الحياة دون أدنى ذنب، قد مزق قلبها أكثر من زوجها الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بين أحضانها أغلقت عينيهِ وودعته في سلام

تلوذ لتلك الجدران التي تشهد على كل لحظاتٍ قد مروا بها معاً، حينما كان يقبل رأسها قبل ذهابه للعمل، وحينما كان يحضر لها الأغراض، ويذهب كي يطمأن عليها وهي طريحة الفراش

قلب محمود هو أفضل هدية منحها الله إياها، بعد أن أنشغل محمد بدولته الصغيرة "فتياته"، وحلمه في تعليمهن، وسعيه أن يحقق حلم والده وتتسع رقعة الأرض"

يجني المزيد من الأموال حتى يحين وقت الرحيل إلى هناك حيث قريتهم دكران، فهناك الأمان، الأمل والحياة، بدون ضجيج، نفوس راضية، وقلوب ناصعة البياض

هكذا تخلل حلم محمد كل محاولة لأمه من ضمه تحت لواءها مرة أخرى، كان بريق الحلم يشدو في كيانه، فرسم على عينيه غشاوة لا يرى خلالها تلك القلوب التي تهاوت تحتاج فقط لمن يؤنسها، حتى وإن كان قلب أمه

رفضت أم محمد أن تبتعد عن شقتها التي تتحسس فيها روح محمود، فلمن ستعيش من بعده، لكل منهم عائلته التي هي كل حياته أما هي فقد رحلت معه، دفنت بجواره في قبره

لا تدري بأنهم يتهامسون فيما بينهم عما تفعل هل فقدت عقلها؟، لا تبالى حتى إن علمت ذلك، هي لازالت تحادثه تشتري الطعام وتضع أطباقاً لهما وتجلس تشاهد تلك القناة الرياضية التي كان يفضلها دوماً، وتتسامر معه، توقظه في الصباح كي يذهب لعمله، ومن يطلب منها أن تذهب معه دوماً كان ردها

-ومن يهتم بأمر محمود

تنظف غرفته وتقف في شرفتها تداعبه وتتضاحك حتى يسمعها الجيران، ولما يحل الليل تغلقها وتحكم الستائر حتى لا يتسلل سقيع الشتاء إليه فيصاب بالبرد

تقبله وتغلق ذلك المصباح الذي يضعه على مكتبه ثم تغلق باب الغرفة وتخرج للصالة تجلس أمام التلفاز على ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه دوماً

ولما يحل عليها النوم تدخل إلى غرفتها كي تنام مبكراً، حتى تستيقظ في الصباح وتعد له فطوراً لذيذاً، هكذا هي حياتها، هي فقط من تشعر بوجوده الجميع على يقين بأنه قد رحل...

هرول محمد وهو ممسك بطرف جلبابه البيضاء

-مريم، ماذا حل بك، ولماذا تبكين هكذا يا أختي؟ ماذا فعلوا بك مجدداً؟

أجهشت مريم في البكاء، وارتمت في أحضان أخيها، تختبئ من عيونهم، وهم في ذهول، للمرة الأولى يرون مريم تبكي هكذا، محمد يقبل رأسها ويربت على قلبها

- لا عليك يا حبيبتي، فقط أخبريني من جعل دموعك تنهمر هكذا ولن أدعه يحيا ثانية " يقولها هو يمسح عن عينيها الدموع ويرفع وجهها الشاحب من بين ذراعيه "

فارتسمت على وجهها ابتسامة طفيفة، كادت بعدها أن تشرع في البكاء ثانية، فأمسك محمد بيدها حتى أجلسها بجوار والدتها وجلس بجوارها وقال مازحاً

- يا مريم لقد أهلكنتي دموعك، وتبلل جلبابي حتى كدت تغرقيني

فضحكت مريم، ثم تنهدت، وحينما بدأت تحاور أخيها

فوجئ الجميع بباب المنزل يدق بشدة، فلما هرولوا لمعرفة من الطارق، كان محسن زوج مريم ذلك الشاب الوسيم هو الأخير بين أخوته، شعره الحريري الذي لم يتوانى عن النمو كلما هم بتهذيبه قد جعل الفتيات يفتن به وبتلك العيون البنية وقوامه الذي يشبه رشدي أباطة فارس أحلام البنات

لكن بداخله كان ليس كتلك الهيئة التي منحه الله إياها، كان كطفلٍ مدللٍ،
لا زال ينصت لأمه في كل ما تقول، دون أن يبحث عن الحقيقة، فأمه دوماً
على صواب

لما علم محمد ان محسن هو من بالباب عاد كي يجلس بالداخل ودفع أخته
مريم بقوة، ترك لفتياته شرف استقبال زوج العمّة

لم يلقى حتى محسن عليهم السلام تسارعت خطواته إلى الداخل ثم أردف
قائلاً

- ماذا حدث، لقد أتيت من عملي حالاً، فأخبروني بأنك رحلت باكياً

- أتيت لتسألنا عن سبب حزن زوجتك التي تقطن في بيتك يا محسن، من
أخبروك برحيلها لم يكملوا باقي القصة كي تعلم ماذا حل بزواجك؟

نظر محسن له في ذهول، وكاد يشعر بالدوار من تلك الحدة التي رد بها
محمد على سؤاله، لكنه تمالك نفسه وتعامل بهدوء حتى لا يشعروا
بضعفه، ثم استدار له قائلاً

- وها قد أتت لأحضان أخيها، لماذا لم تخبرك ماذا حل بها؟

ابتسم محمد في دهاء ثم قال

- وهل أنت تعلم عن أخوتك أكثر مما يعلمه زوجها يا محسن

لما شعرت علا باحتدام الموقف بينهما وكاد الأمر أن يتحول لمشدة
كلامية، ثم مشاجرة عنيفة، بين أخ يدفع الأذى عن أخته، وزوج يحاول ألا
تنفرط عقود سيطرته على زوجته، فأشارت بسرعة إلى وردة

- وردة، أحضري عصيراً لعمتك، كي تهدأ قليلاً

- حاضر يا أمي

ذهبت وردة بسرعة وأحضرت العصير والجميع يحاول تهدأت العمّة،
وليلي وفريدة تحاولان أن يهدأون من روع الأطفال قليلاً بعد أن ازداد
صراخهم كلما ارتفعت أصواتهم في الحديث

لم ترزق مريم من محسن سوى بطفلين أميرة ، مروان، أميرة في عمر فريدة، ورثت عن أمها ذلك الجمال الفرعوني، تتمايل صفائرها الحريرية كلما لعبت مع فريدة الغميضة، ومروان الذي لم يتعدى عمره العام، لا زال يجلس على قدم جدته، التي تتمنى ألا يفارقها بتلك الملامح التي ورثها عن خاله محمود

أحضرت ثرية للأطفال بعض الحلوى، وشربت مريم العصير فشعرت بحالة أفضل ثم نظرت إلى زوجها

- أراءيت يا محسن، لقد أعادت والدتك الكرة مرة أخرى، ووبختني أمام الجيران، ولأنني لم أرد عليها زادت فيما تقول، كل ذلك بدون أدنى سبب نظر إليها زوجها في حزن

- لا تحزني عزيزتي لا عيب عليك، سأخذ حقاك

ثم أقبل نحوها وقبل رأسها، فنظرت إليه في غضب، لكنه حاول أن يمتص غضبها قائلاً

- هيا عزيزتي كي نعود لمنزلنا

- كيف لك أن تجرأ على طلب هذا بسهولة يا محسن، أراءيت كيف فعلتم في أختي، أكل جريمته أنها لم تتربى على الشجار، تستحي أن ترد على والدتك بألفاظها النابية، وأفعالها الكيدية ، لن تذهب أختي معك إلى أي مكان، ستظل هنا في بيت أبيها بعزة، وستسافر معي إلي الصعيد حتى تهدأ أعصابها

- كيف؟ هل ترضى أن تغيب عنك زوجتك وأولادك هكذا، لماذا علي تحمل أخطاء الآخرين، لا يمكنني الاستغناء عن زوجتي، وأولادي

نظر محمد في مقت، ثم هم قائلاً وهو يشير إلى أولاد مريم

- وكيف لك أن تتركهم عرضة للإهانة، هذه ليس أول مرة تأتي أختي إلينا باكية، ماذا حل بكم، أنذهب لوالدتك الآن وننتشجر معها كما فعلت بأختي، أم لأننا نحترم شبيبها تقلل من شأننا هكذا

- هل توافقين على كلام أخيك هكذا يا مريم

تنظر مريم إليهم في حيرة

- لن أجادل أخي، لقد عارضته كثيراً لأجلك ولم تتبدل أحوالك، في كل مرة أهان وأطرد وأنت لم تفعل لأجلي شيئاً

نظر محسن إليهم في غضب، ولوح إليها مهدداً

-ستندمين على عصيانك لكلامي يا مريم، لن تفيد طاعتك له، فقد أمرت بطاعتي أنا

- أغرب عن وجهي كم أنت سليط اللسان، حتى وهي تحتاج إلى كلمات تربت على قلبها، تهددها بكلماتٍ لا داعي لها، أرحل من هنا

هم محسن غاضباً، ثم اختبئت مريم مرة أخرى في حضن أخيها باكية

محمد : " وهو يربت على يدها "

-لا عليك يا حبيبتي خروجه من هنا بدونكم سيكون أكبر معلم له، حتى يتمكن بعد ذلك من حفظ الأمانة التي وهبها الله إياه

لم تقبل مريم أن تصعد إلى شقة أخيها وتترك والدتها، فضلت أن تبقى معها حتى يحين وقت السفر، لما وجد محمد إصرار أخته على هذا القرار لم يجادلها، وصعد هو وأبناءه بعد أن اطمئن إلى حالها

حل التعب عليهم فغلبهم النعاس لكن ثرية لازال ما حدث اليوم يشغل فكرها، كيف لزوجةٍ منحت زوجها كل ما يتمنى الرجل من السكينة والحب أن تحيا معذبة هكذا ثم همست في غضب

"لماذا لا تثور عمتي على هذه الحياة، لازالت امرأة مفعمة بالأنوثة، كل أبواب الحياة تنتظر أن تخطو فيها خطوة واحدة، هل ما تعيشه بالفعل هو حب، أم العشرة التي غزلتها الأيام في قلوبهم وذلك التعود قد جعل منها امرأة مغيبة عن الوعي، لا تقوى على التفكير"

قد كانت مريم المدللة لدى الجميع هي ابنتهم الوحيدة، لكن لعل ذلك القناع المزخرف بالطيبة والمعاملة الحسنة من الحماة قد رسخ بداخلها أنها ستحيا سعيدة بين تلك الأسرة، ولما حاولت الصراخ في وجوههم كانت قد رزقت بطفلتها الأولى

ربما تلك الأطفال هي نعمة منحهم الله إياها كي تستمر الحياة، مهما كانت الآلام تتراكم على قلوبهم وتمزقها، هي نظرة واحدة لوجه أطفالهم ويزوب كل شيء

قسوة الزوج يحوها حنو الطفل على أمه، حين يرتمي بين أحضانها ليشعرها بالحياة، حتى تلك الأحلام التي عكفت أي زوجة على تحقيقها تعود لذكراها مع كل يوم يكبر طفلها ، تحاول أن تستمد من ابتسامته القوة على الاستمرار

وحينما يُحكّم الزوج أبواب القفص، تحاول أن ترفع جناحيها بداخلها كلما تأذت دفعت بصغيرها من جديد تحاول أن تحقق فيه ما تمنّت أن تكون ثم عادت ثرية تردد مرة أخرى

-هل سأقوى أنا على التحمل كما فعلت عمتي، وما نتيجة ذلك، أن ألقب بأنثى مطلقة ولدي طفلان، وأظل طيلة عمري تحت عدسات المجتمع كل أفعالي تحت المجهر

فكل ذنبٍ أقترفه هو كبيرة من الكبائر، فدوماً أنا المخطئة، أنا من أهملت في حق زوجي وتركت محروماً من ملذات الحياة، رغم كل ما منحني من الحنان والحب

لن يروا حينها ما عانيت أو تلك الجروح التي أهلكت قلبي، هم فقط على صواب وكل مطلقة هي امرأة أصابتها لعنة الاختيار، فمنحتهم حق الخوض في حياتها بأنوفٍ لا تخجل

تنهدت ثرية في أسي، وهي تقلب جنبها بجوار ليلي، ثم همست قائلة

-لقد تأخر الوقت وعلي النوم مسرعة فإن استيقظت أمي علينا جميعا
الاستيقاظ

ثم غطت في نوم عميق

حل الصباح، ونزلت علا للاطمئنان على مريم، اصطحبت ليلي كي
يشتروا بعض الأغراض، فدخلت كي توقظ عمتها مريم

خرجت معها مريم من الغرفة وهي تتكأ على الجدران ثم استندت على
كتف ليلي وأمسكت برأسها ثم هوت ملقاة على الأرض ...

الفصل الرابع

سقطت مريم في أرض الغرفة بعد أن شعرت بالدوار، فنادت ليلي أمها
بفزع

-أمي ، أمي

هرولت الجدة وعلا إلى الداخل فصرخت الأم وهي تنحني لتسند مريم،
علا تمسك بيدها الأخرى ولا تقوى ليلي على التحرك، وكأن قدمها قد
التصقا بالأرض

نظرت أمها في غضب

-تحركي أيتها الفتاة هل ستظلين باردة الشعور طيلة حياتك، أرفعي عمئك
معنا

امتألت عين ليلي بالدموع ونظرت لأمها بأسى ثم هرولت إلى الأعلى،
دقت الباب بعنف ثم دخلت غرفة أبيها أخفت وجهها في وسادته وأجهشت
في البكاء

لم تلتفت إليها بل تركتها ترحل هي مشغولة الآن بفارقة الوعي التي بين
أيديهم، أسندوها إلى السرير، أحضرت أمها زجاجة عطر من أغراض
مريم التي لازالت تحتفظ بها حتى بعد زواجها، ومررتها بجوار أنفها لعلها
تستفيق

أتت وردة من الداخل مسرعة على صوت دق الباب

-ماذا حدث يا ثرية

- لا أدري هي صعدت باكياً " تقولها وهي تربت على قلب ليلي "

وردة تجلس بجوارهما على السرير، ثم تحتضن ليلي بحنان

-لا عليك حبيبتي فقط أخبرينا ما حدث

لا زالت ليلي تبكي بشدة، أحمرت عيناها من الحزن، صارت تتنفس بصعوبة من كثرة البكاء، حتى سندتها وردة

-هيا يا ثرية هيا سنجعلها تغسل وجهها بماءٍ فتر عليها تهدأ قليلاً

جلسوا حولها بعد أن هدأت محاولين أن يعملوا ما جعلها تبكي هكذا

لم تنطق ليلي سوى بكلمة

-لقد وبختني أمي كعادتها

وبعد إلحاحٍ منهم قصت عليهم ما حدث، حاولت ثرية أن تهدأ من روع ليلي مازحة

-يا ليلي، إنها عادة أمي أن توبخنا أمام الناس، ولن توبخك أمام غرباء، هم فقط الجدة والعمة، ولكننا قد نسينا أمراً هاماً " تقولها في فزع "، كيف لك لا تخبرينا منذ البداية علينا أن ننزل لنرى ماذا حل بعمتنا

ثم هموا جميعاً ونزلوا مسرعين

علا " وهي ترفع رأس مريم بين يديها " : علينا يا أمي أن نطلب طبيب، أو حتى سيارة إسعاف

صاحت الجدة : إسعاف، لا ابنتي ستنقلها الإسعاف، تصرفي هيا وأطلبني أحد الأطباء، أو أطلبني النجدة من أحد الجيران

عقولهم أصابها الشتات يكفي ما مروا به البارحة، لم يستفيقوا بعد مما حل بهم، لا زالوا يفكرون، يتأملن كلٌ منهن وجه الأخرى لعل أحدهم تطرق عليه فكرة تنقذهم من ذلك الموقف

من بين تلك الحيرة التي سيطرت على ملامحهم تتأفف مريم، وتحاول أن تزيج زجاجة العطر بعيدا عنها، وتضع يدها على فمها تبعد يد علا عنها وتبعدها وتدلي برأسها إلى الأرض محاولة التقيء

الجدة : الحمد لله عزيزتي أنك بخير

علا : لا تقلقي يا أمي سأهاتف محمد كي يحضر الطبيب، حتى نطمئن على حالتها

تهز مريم رأسها بهدوء ولا زالت تحيط بعينيها غشاوة تشوش على رؤيتها ففضلت أن ترقد مرة أخرى على السرير وتغمضها علها تستريح

تتنهد بزفيرٍ ملتهب، حياتها تمر عليها في تلك اللحظة كفيلم تتذكر كل لحظاته، قلبها يخفق بشدة من ولعه بالعودة لكن عقلها يحمل سياطاً، يضربها بكل قوة، عليكِ بالقوة وإلا فلن تجدي سوى الهلاك

علا : لقد هاتفت محمد وسيحضر الطبيب في الحال

نظرت الجدة لمريم بابتسامة وهي تزرف دمعاً تحاول أن تخفيه عن عيونهم، ثم تربط على يد مريم وتقول في هدوء

-هيا علينا أن نتركها تستريح

لم يمر الكثير من الوقت حتى حضر محمد بصحبة الطبيب، شاب يافع ذو نظارةٍ رمادية، يحمل حقيبة بنية في يده، قصير القامة، معطفه الأبيض يمنحه وقار العلماء

ألقي الطبيب السلام ثم رافقه محمد للغرفة وتركه وخرج، بضع دقائق، حتى خرج الطبيب وهو يبتسم ويربت على يد محمد وهو يسلمه رويشة الدواء

- أخبرني يا دكتور، هل أختي بخير

الطبيب -في ابتسامة - : نعم لا تقلق، أحضروا لها تلك الفيتامينات فقط،
وعليها بإجراء بعض الفحوصات والتحاليل، هي في انتظار طفل جديد،
مبروك

يمسك محمد الورقة في ذهول، ماذا عليه أن يفعل هل يفرح بذلك الطفل،
أم يبكي لحال أخته الذي طرد زوجها بنفسه، هل أخطأ حينما قسى على
محسن

حتى وإن لم يفعل، لن تكن الأمور تستمر بتلك الطريقة الهذلية، ستحين
اللحظة التي يتمرد فيها المطيع على سيد جبار، ولا بد للبركان من ثورة
تزيل صمت خموده

يحك جبينه بيده وكأنه قد توقف عن التفكير، لكن عليه أن يتمالك أعصابه
ويبتسم في وجه أخته، والدته قد هرولت لإبنتها كي تهنأها بحملها في
مولود جديد ورافقتها علا إلى الداخل

الجميع يضمها بحب كي يهنأها وتنهل عليها القبلات، حتى أميرة فقد بدأت
في المرح حولها وهي تردد

-ستلد أمي طفلاً

دخل حينها الفتيات،

-عمتي

تبتسم علا وهي تقول

-باركوا لعمتكم يا فتيات فقد أخبرنا الطبيب بأنها حامل

نظروا في فرح إليها، وبدأوا في تهنئتها

ليلى لا تدرك ماذا عليها أن تفعل في تلك المواقف، ظلت حائرة ولكنها
اهتدت في النهاية إلى تهنأ عمتها في ابتسامة وإن كانت مصطنعة ستنتشلها
من ذلك الأحراج الذي حل بها منذ أن سقطت عمتها وهي لم تصنع شيئاً

لم يكن أمراً مستجداً في حياة ليلي وأخوتها، فقد كانت والدتهم دائماً، تصنع حول حياتهم سياجاً ملغماً بالوحدة واعتزال الآخرين، فلا صديقة مقربة، ولا تنزه ما لم يكن هناك حاجة لذلك

حتى الأقارب لابد أن يتعاملوا معهم بحذر، فظل ذلك الخجل وعدم قدرتهم على اتخاذ القرار مصاحباً لأكثر مواقفهم، مما يجعلهم ينعزلون أكثر عن ذلك العالم حتى يسلّموا من سخرية الآخرين، فأحكموا الغام السياج وظلت الوحدة هي رفيقهم الدائم في الطريق

دخل محمد مبتسماً قبل رأس مريم ثم ردد وهو يشير إليها،
-يا مرحبا بمولودنا الجديد، مبروك حبيبتي، لعل الله أراد لنا أن نسعد ولو قليلاً

ثم هم قائلًا

-هيا علينا أن نتركها تستريح وأحضري لها يا أمي أطيب الطعام، حتى تقوى على ما سيأتي

الجدة -وهي تتكأ على السرير وتمسك ظهرها بيدها الأخرى - حاضر يا ولدي

لم تشعر مريم بوجودهم، شاردة الذهن، تنظر إلى بطنها في ابتسامة يتخللها الدموع، تلامسها بيدها فتشعر بحياة جديدة تولد بداخلها، تذكرت حينها فرحة محسن حينما علم بحملها الأول

حملها بين يديه وأجلسها برفق على السرير، ثم قبل جبينها هامساً
-من الآن وحتى يشرفنا ولي العهد على زوجتي العزيزة أن تظل في راحة تامة

نظرت إليه مريم في حزن

-كيف يا محسن ومن سيقوم على خدمة والدتك

محسن : لا عليك عزيزتي، تحملها فهي أُمي، وإن لم أكرمها لن يرضي
عني ربي

تنهدت حينها مريم وعلمت أنها قد أخطأت في فكرة الانفصال، كيف لها أن
تترك من نبض قلبها حبا له،

من كان سيربي هؤلاء الأطفال ، أعلم أن جميع النسوة يتعثرون بالكثير
من المشكلات في رحلتهم الزوجية، فمنهم من تتعقل فتمر السفينة بسلام،
ومنهم من ترى الانسحاب فتغرق سفينة الأطفال

وفي كل الأحوال يتحاملون علينا، تظل دوماً "ناقصات عقلٍ ودين" تفوح
من بين نظراتهم الساخرة لإنسانياتنا، هم يتذكرونها فقط وينسوا بل يتناسوا
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " رفقا بالقوارير "

أين هذا الرفق؟، وكيف استوصوا بنا خيرا، أبحث بمجهرٍ عن يعمل بتلك
الوصايا، ولكن كيف وهم يرون أنفسهم في المرأة ملائكة، نحن من
أخرجناهم من الجنة، وتناسوا " فوسوس له الشيطان "

أعباءٌ نتحملها فوق ظهورنا، وآلامٌ يتحملها القلب تفوق احتمال البشر،
ولازلنا في نظرهم مجرد أطفالٍ يحملون في أيديهن العرائس وتلك
الحلوى، لا نهوى سوى الشراء

لا يدرون بأننا نفرغ تلك الآلام وكل ما حملنا من طاقات، بين تلك الألوان،
نشعر أننا ننتقم منهم في أموالهم، فتهدا تلك النيران الموهجة بداخلنا

يسمعون أصوات الصراخ في وجوه الأطفال، فنصير نبحت عن الحزن
والكآبة، هم فقط يريدون أن يعيشوا ملوكاً في قصرٍ والجميع لهم حاشية،
وكلمة واحدة تتردد على ألسنتنا " أمرك يا مولاي "

تنهدت مريم ببطيء، وهي تكتم بداخلها دمعات تريد أن تخرق ذلك
الصدر الذي تحمل الكثير، ربما لم تعاني كما عانت الكثير من النساء، لكن
تلك الحياة التي عاشتها قبل زواجها جعلت منها امرأة لا تعرف الشجار،
فقط تحب الهدوء والابتسام

هي وحيدة والدها فتاته المدللة، تغمر المنزل بالحياة فتدخل الشمس حينما
تبتسم، ويطل القمر حينما تخجل، لكن كل ما هو سعيد لا يستمر، فمنزلها
الذي غمرته السعادة والأمان انفرط عقده بوفاة والدها

الحاج كامل الذي وافته المنية وهو في سن الخامسة والسبعين، توفي وهو
يحتفظ بحيوية شاب لم يتعدى الثلاثين، كان دائم المرح، يلتف حوله كل
الصغار، يستقبلونه بحفاوة، ودوما يحضر لهم الحلوى ويجلس لينصت
لآراءهم

تلك القامة القصيرة أكسبته روحاً فكاهيه جعلتهم يشعرون بأنه ليس الجد
بل هو بنفس أعمارهم يريد أن يستعيد معهم ذكرى طفولته، لم يوافق أبداً
على سفر ولده محمد وكان لأول مرة يعنفه قائلاً

لن أتركك ترحل، فتعيش كالميت على قيد الحياة، لن أجعلك تهلك في
غربةٍ قد هلك فيها أجدادك فطمست ملامحهم شمسٌ لم تشرق في قلوبهم

ظل شغوباً بالتأمل، يتركهم بعض الأحيان ويذهب على شاطئ النهر
فيشرد ذهنه، ويهمس للشمس ألا تغيب

حينما تذكرت مريم والدها سقطت من عينيها دمعة، وهي تتذكر كلماته

-يا بني أعلم جيداً، أنك قد قررت بالموافقة على محسن لكن فلتعلمي لن
تستمر تلك الابتسامة على وجهك كثيراً، من ظل طيلة حياته أمه هي من
تفكر له، فلن يستطيع أن يبني لك مكانة في حياته

تنهدت بأسى وهي تردد

-رحمك الله يا أبي، كنت على حق

رأى محسن محمد من شرفة غرفته وهو يصطحب ذلك الشخص هو لا
يعرفه، لماذا يأتي محمد في هذا الوقت المبكر، هل عاد مسرعاً، إلى
منزله، لا أدري " محسن يهامس نفسه وهو يترجل في غضب بالشرفة"

لم تغفل عيناه منذ البارحة، يضع يده في ذلك المعطف ولا زال يتردد على شرفته بين حينٍ وآخر، يطل بعينه على منزلها، يريد فقط أن يلمح طرفاً ويعود لفرشه، لم يعتد أن ينام دون أن يشعر بالدفء بين أحضانها

كلما ارتفع صوت التلفاز لبرهه يهرول للداخل لقد استيقظ مروان، ثم يعود أدراجه يائساً، حتى ظل يوبخ نفسه على ما فعل

-لا أنكر أنني هددتها، لكنها محقة، نعم هي محقة، كيف لها أن تعيش مع رجل مثلي ضعيف لا زال يترك لأمه حتى اختيار تلك الملابس التي يرتديها ثم خلع عنه ذلك المعطف وظل يزيل عن جسده ما يرتديه حتى وقف عارياً أمام المرأة

ظل يبكي كطفل، حاول أن يستر جسده الهزيل بأي شيء، نظر حوله فوجد كم كانت مرتبة لم تترك فيها زوجته قطعة ملابس واحدة ملقاة حتى في الغسالة فلم تترك المنزل حتى نظفت كل ملابسه وكوتها ووضعتها في مكانها

أغمض عينيه في خجل ثم هرول للحمام لعل ذلك الماء البارد يصنع منه رجلاً، يمكنه ان يحافظ على حياته ولا يهدم بيته بيدٍ مرتعشة لا تستطيع أن تظل على عشمها الصغير

يغمر جسده بالماء ويهوي لبئر الذكريات التي غمرتها مريم بالسكينة، والتصرفات الحكيمة، تغلبت على كل محاولات والدته البائسة في الوشاية بها،

كان يعلم أن زوجته على حق، ولكن كيف له أن ينصر زوجته على والدته، ظل يفكر حتى أصابه صداع فحاول أن يغفل لبرهه

حل الليل واصطحبت علا مريم لإجراء الفحوصات التي طلبها منها الطبيب، تشعر بقدميها ثقيلة لا تقوى حتى على الخطوة بسهولة، وجهها شاحب، وعيناها تملأها الدموع

هاتفها لا يتوقف عن الرنين، تتكأ على علا، وكلما تنظر في شاشة الهاتف وتعرف من هو المتصل تتراجع، حتى تعجبت علا من تصرفها فتوقفت قائلة

لماذا لا تردي على الهاتف، دعينا نتوقف قليلا حتى تتمكني من الرد - لا لا إنه محسن، لا أريد الرد عليه، هل من حقه أن يعلم أنني أحمل في أحشائي طفلاً له

علا: بالطبع من حقه، " ولا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن"

خيم الصمت بعد أن ردت ذلك الرد التي تعرفه مريم دون السؤال، أرادت فقط أن تريح مريم ضميرها، حتى إذا ما أبلغته، فلن تتحامل على نفسها في العتاب مرة أخرى

ظل الهاتف يرن حتى عودتهم من المشفى، فردت مريم في غضب ماذا تريد؟

- أريد أن أطمئن عليك

- فقط عليك أن تعلم أنني حامل

وأغلقت مريم الهاتف وتركت عقل محسن يشب من رأسه، ظل يرن الهاتف عليها حتى ألقي به بكل قوة فكسر زجاج النافذة

عادت مريم وعلا وطمأنت والدتها بأن الفحوصات كلها جيدة، ثم جلست لتهدأ قليلاً وبدأ الأطفال يلعبون حولهم والجدة تتسامر مع بنات محمد، حتى سمعوا باب المنزل يصدر دويًا....

الفصل الخامس

هرول الجميع، وصوت الصياح والضجيج يزداد، حتى فوجأ محمد بمحسن الذي ظلت نبراته الغاضبة في التصارع

-أيها الناس أشهدوا على زوجتي، رحلت إلى بيت أبيها منذ أكثر من أسبوع كل يوم آتي لأجل مصالحتها، هي ترفض وأعود متخاذل، وكلما أتصلت على هاتفها لم تعيرني اهتماماً، ولا يريدوا أن تعود معي حتى بعد أن علمت بأنها حامل

أريد أن يرد أخيها علي، أمامكم، إذا كانوا لا يريدون أن أظل في حياتها لماذا قبلوا بي من البداية

نظر محمد إليه في غضب و لم يرد على هتافاته الماكرة، التي يريد بها أن يجلب استعطاف الجيران حتى يحدثوا محمد، كي تعود زوجته

تمالك نفسه وهم مسرعاً إلى الأسفل، وظلت مريم تبكي ، وعلا والجدة يهدأوا من روعها

بعد أن كانت خطوات الأخ يملكها الغضب حتى أحمرت عيناه، حينما نظر إلى باب شقة والدته بالأسفل، تذكر فأغمض عينيه، ونظر إلى الأعلى وهو يتمتم، ألهمني الصبر يا رب

صراخ محسن بالخارج يجعل بركان غضبه يثور مرة أخرى، لكن صوت صراخ والدته في تلك الليلة جعلته يتراجع عما أراد أن يفعل، كلما تقدم خطوة لبوابة المنزل رأى تلك الدماء التي كانت تملأ المكان

فتح باب المنزل بهدوءٍ وروية، ونظر إليه، تنفس بعمقٍ حينما رأى الجيران يمسكون بيديه حتى يكف عن تدمير الباب

-ماذا تريد، أخیل إليك بأن ما تفعل سيجعل زوجتك تعود إليك بسهولة هكذا، لقد صمتنا عن حقها لسنواتٍ طوال، حتى اعتقدت بأنك تفعل ما تريد دون أن يحاسبك أحد

محسن ينظر إليه بدهشة، كيف له أن يتحدث بهذا البرود، تجولت عين الأخ المكان فرأى أنه لم يأتي بمفرده بل أحضر أصدقائه و في أيدي أحدهم سلاح أبيض، والآخر يحمل ساتوراً كالذي يتراقصون به في الأفراح.

فابتسم في استهزاء

-أفترح بمثل هؤلاء، إذا قمت بمهاتفة أحد أمناء الشرطة الآن، سيتركوك بمفردك، وستسجن وحيداً، وإذا قمت بضرب طلبة رصاص واحدة سينفض الجميع الآن،

ووضع يده في جيبه والجميع يترقب وهو يخرجها ببطء

يتراجعون أدراجهم واحداً بعض الآخر، حتى أتضح من جيب عباءته بان ما يخرج شئ يشبه مسدس صغير، فهرولوا جميعاً بعيداً، عنه وحاول أحد الجيران أن يمنعه مما يريد فعله

-بينكما نسبٌ وأطفال، لأجلهم أعفو عما فعل، لكنه نظر إليهم وصوت ضحكاته تعلو السماء، لماذا تمسكوا بيدي هكذا

-نظروا بعجب، حتى لا تخرج المسدس، وتسيل الدماء

ابتسم بمكر مرة أخرى،

- لقد أسأتم التقدير، إنني أريد إخراج هاتفني حتى أتصل بالشرطة لأجل هذا الرجل المتصابي، الذي لا يأخذ في الاعتبار أولاده الصغار، هل يدرك كم فزعهم ما صنع، أليس هم أبناءك يا محسن

سحب محسن يده عنهم وأنزل رأسه خجلاً، وتقدم في حزنٍ

-يا أخي لماذا وضعتوني في هذا الموقف، عشت طيلة عمري بعيداً عن الناس لم يستمع الجيران، لصوتي حتى، أتيت لأصالحها أكثر من مرة، لما تحاسبوني على أشياء لم أفعلها

-همس بكلمات لم يسمعها سوى محسن

-مادمت بدأت تتحدث كما الرجال فعليك بدخول المنزل بعدما تطلب من أهله الإذن

حينما رأى الجيران محمد وزوج أخته محسن قد بدأوا التفاهم، بدأ أحدهم بالهتاف

-هيا فليعد كلٌ منا إلى ما كان يفعل، ونتركهم وشؤونهم

دخل محمد فتح شقة والده، وانتظر محسن بالخارج حتى خمدت ثورة
بركانه، وأستاذن في الدخول، طال بينهما النقاش والعائلة لا زالت تنتظر
بشغف في الأعلى، لا يستطيع النزول خشية إغضاب محمد
الأطفال يمرحون من حولهم يضرب كلٌ منهم الآخر حتى صاحت في
وجوهم مريم

-ابتعدوا من هنا أصمتوا قليلاً، لقد أصابنا الصداغ من ضجيجكم

جلس الجميع في دائرة حولها وهي تمسك رأسها بيديها

-لا عليك يا مريم، الأمور قد هدأت الآن، وأنتهى الشجار، الحزن ليس
لمصلحتك أنت ومن في بطنك

صمت الجميع، وأخذت ثرية الأطفال في غرفة أخرى

محمد لا زال يتحدث مع محسن الذي صار يتحدث على استحياء، يتمنى لو
أنه لم يفعل ما فعل، حتى لا يخسر آخر قطرة لماء الوجه، هو أراد فقط أن
يرسم للجميع صورة أنه رجل، حتى يكسر حاجز العجز بداخله

هو لا يستطيع حتى أن يدافع عن زوجته، أو يرحمها من ويلات الشجار
مع أمه، لا يملك أن يفعل سوى ذلك، عليه الآن أن يللم ما تبقى ويفكر
بكل جدية من أجل ألا يهدم عشه الصغير، حتى يعود كي يحتضن أطفاله،
وتعود إليه سكناه

- لن أتحدث معك ثانية عما فعلت، عليك الآن أن تسرع في الحديث عما
تريد

- محسن_ في حزن_ أنا لا أريد شيء سوى أن تعود عائلتي، لا تعلم كيف
مرت علي تلك الليالي، أنت أكثر من يعلم كم أحب مريم، لكنكم حملتموني
ما لا طاقة لي به، كيف لي أن أهين أُمي لأجلها

-محمد في غضب، لم نطلب منك ذلك، كل ما أردنا هو حياة كريمة
لأختي، كانت وردة يتمناها الجميع، لكن نصيبها كان في وجودك ارتضينا
دينك وخلقك فزوجناك، لكن لعلنا قد خُدعنا

-لا أستطيع الرد على اتهاماتك فما فعلت جدير بأن يجعلك تحادثني بكلمات
أقسى بكثير، لكن أريد أن تلبي فقط طلبي وأنا على استعداد كي ألبى
رغباتكم

-طلبك مرفوض

نظر محسن في غضب، ثم أكمل محمد

-على الأقل في تلك الأيام

نظر محسن متسائلاً

-اتركها تسافر معنا كي تغير من تلك الحالة التي عانتها، عليها تغفر لك ما
قد عانت سابقاً

-لكن كيف؟؟

انتفض محمد لم يسمح له بإتمام كلماته

-هذه هي كلماتي الأخيرة، أسمح لي

استند محسن على تلك المنضدة في وسط الغرفة ، وقام عن ذلك الكرسي
المجاور للأريكة، نظر بحزنٍ لمحمد

-إذاً فلتسمح لي أنت بالانصراف، لكنني سأظل أحاول حتى تعود زوجتي
مرة أخرى

أشار محمد له بالانصراف، ثم أغلق باب الشقة بإحكام وتنفس الصعداء
على مرور الموقف بسلام

حينما سمعوا صوت أقدامه على الدرج، هرولوا لأجل فتح الباب، فوجيء
بهم حينما وصل للشقة

-ماذا بكم هيا عودوا إلى الداخل، لقد غادر محسن

نظروا إليه في دهشة

-غادر، كيف؟، وماذا حدث، ولماذا فعل ذلك

-أصمتوا، وأتركوني الآن

دخل إلى غرفة الأنترية وأشعل سيجارا يليه الآخر، ظل يفكر فيما حدث،

هل كنت قاسياً مع محسن، أم أنني فعلت الصواب، المهم الآن أن نسافر،

لقد عانا الجميع في تلك الفترة بما يكفي، كفانا مماطلة وتفكير، وهم محمد

ترجل بخطوات هادئة إلى الصالة، وجدهم يتهايمسون فهم يحادثهم غاضباً

-أما زلتم جالسين، هل قمتم بإعداد الحقائب، وأنجزتم كل ما عليكم فعله،

السفر في الغد، وأنتم لا زلتم جالسين

همت وردة برشاقتها المعهودة،

-حاضر يا أبي، هيا يا أخوتي كي نكمل ما كنا بدأناه

-عليكم أن تنجزوا كل شيء اليوم وغدا تنزلوا الحقائب بالأسفل حتى يسهل

علينا حملها بالسيارة

قامت الأم كي توزع الادوار على الفتيات، الجميع يعمل، فقد صارت

أنفسهم متعبة من تلك الأيام الماضية، يرغبون أن تكون تلك الرحلة هي

الأفضل

ظلت ثرية شاردة الذهن، انتظرت حتى نام الجميع ثم نظرت إلى وجه

وردة التي لم تنم بعد

وردة : لماذا تحديقين في وجهي هكذا

ثرية : لقد شرد ذهني قليلاً، وحينما نظرت إليك تذكرت قول شمس الدين

التبريزي " وجالس جميل الروح، تصيبك عدوى جماله"

فتوردت وجنتي وردة خجلاً ونظرت إلى الأسفل في ابتسامة، فاقتربت
منها ثرية قائلة

-امنحيني المزيد من حنانك أختي، لم أعد أقوى على أنين قلبي
وارتمت ثرية بين أحضانها، وبدأت في بكاءٍ مكتوم، أغمضت عينيها عليها
تجد بين أحضان وردة غفوة تريح قلبها
وردة : "وهي تربت على قلبها" حبييتي ليس في الدنيا ما يستحق دموع
عينيك الصغيرتين، لكل حزنٍ نهاية
الحزن يولد كما نولد

نولد صغاراً فنكبر، ويولد كبيراً فيمضي ويندثر
نموت فنبعث

وما يتبقى من بعث الحزن سوى ذكريات
نزلت كلمات وردة على قلبها برداً وسلاماً، تنهدت ثرية و أغمضت عينيها
وضمت وردة بشدة، ثم تراجعته وهي تزيل عن وجنتيها آثار الحزن
والأسى

- لقد تلاشت أحلى الأشياء لم أعد أهتم لأحدهم
وأمسكت بمرآتها الصغيرة وقربتها من وجه وردة
-انظري، انظري إلينا لا زلنا نبكي كالأطفال من مواقف لا تستحق البكاء،
لم يرغب عن بالي طيلة الليل دموع ليلى حينما وبختها أُمي
ألن تكف أُمي عما تفعل، لم تدرك أننا لم نعد صغاراً، لم تكتفي بما فعلت
- أهدأي يا ثرية حتى لا تسمعك فتحزن من كلماتك، عليك أن تدرك بأنها
تفعل ذلك لأجلنا، هي فقط تخاف علينا وتريدنا أن نصبح الأفضل، أفضل
حتى مما كانت هي

علينا الآن أن نخلد للنوم فأمامنا غداً رحلة شاقة علينا أن نبدأها بأذهانٍ صافية، خلدا إلى النوم

حتى انتفضت وردة من نومها وهي تصرخ، لا لا

هرول الجميع نحوها، ضمتها أمها في حنان وهي تهدأ من روعها ماذا بكِ حبيبتي، ماذا بكِ

-لا شيء يا أمي مجرد حلم

تقولها ويدها ترتعشان، تتصبب عرقاً، قلبها تتسارع نبضاته، ولون وجهها صار شاحباً يميل للصفرة

جاولوا أن يُهدأوا من روعها ثم بدأوا في التسلل واحداً تلو الآخر خارج الغرفة متداركين الموقف

انتهوا من جمع الأغراض حتى فوجئوا بمحمد، يأتي مهرولاً

-هل انتهيتُم، هيا كي نحمل الحقائب إلى السيارة

نظروا متسائلين

-أي سيارة ألم تأتي السيارة إلى هنا كما كنا نسافر كل مرة

- لا حتى لا نختنق من زحمة الركاب لم يتبقى على العيد سوى ثلاثة أيام، ووجدت جميع السيارات مكتظة بالركاب، فكيف لنا أن نجلس بينهم، حتى تختنق تلك الأطفال، هيا لا تثرثرون كثيراً دعونا نمضي قبل أن يحين وقت الغروب، لم يتبقى على المغرب سوى ساعتين ونصف

حمل كلُّ منهم حقيبة وتتبعوا خطوات محمد الذي حمل حقيبة كبيرة سوداء اللون، حتى أشار إليهم بالوقوف نحو تلك السيارة البجو البيضاء، فبدأ السائق بحمل الحقائب من أيديهم ووضعها فوق شباك السيارة

كان رجلاً قصير القامة، ذو بشرة سمراء نحيل البنية، بدت الابتسامة على وجهه، وهو يرحب بمحمد وعائلته

-أهلا بكم فلنسرع يا محمد أنتظر معي هنا كي ننظم الحقائق فوق الشباك
ودعهم يحضرون البقية

-تمام يا أشرف

انتهوا من كل الحقائق والعتاد، وظلت الأم والجدة في المنزل يتأكدون من
أن كل شيء على ما يرام، عدادات المياه والكهرباء والنوافذ مغلقة بإحكام
حتى الأبواب، ثم ذهبوا مسرعين إلى السيارة

الجميع باتوا أمام السيارة فتساءل محمد في ابتسامة

-هل حضر الجميع، لم تنسوا أي شيء

-فردد الجميع نعم كل شيء على ما يرام

فركب الجميع السيارة، بدأ محمد والسائق أشرف في اختيار المكان المثالي
للجميع، فجلس الأطفال ومعهم ثرية ووردة، وليلى في الخلف ثم جلست
العمة والجدة والأم على تلك الأريكة التي تتبع كرسي السائق وجلس محمد
في الأمام وإلى جانبه فريدة الي اعتادت الجلوس دوماً بجوار والدها

ولما تأكد السائق بأن الجميع قد شعر بالراحة في مجلسه، بدأ في تدوير
السيارة وأشعل الراديو على محطة القراءان الكريم مررداً

-بسم الله توكلنا

نادت علا

-يا ثرية حافظي على توازن تلك الصواني بجوارك حتى لا تُسكب ما
بداخلها

-حاضر يا أمي

فريدة تجلس بجوار أبيها تشير بيدها " ما هذا البناء الضخم يا أبي؟"

فرد في غضب إنها المحكمة الدستورية العليا حبيبتي، وبدأ في فتح علبة
السجائر

-ماذا تعني المحكمة يا أبي؟

-عليك أن تسألي أختك وردة ، فهي محامية العائلة، وقد أصببتني بالصداع منذ بداية الرحلة، أذهبي للخلف أريد إشعال سيجاراً

حملها بين ذراعيه فأمسكت أمها بيدها وأرسلتها بين أميرة ومروان الذي ينام على ذراع وردة تداعبه بلطف، تنظر إلى وجهه الملائكي وهي تتشوق أن تحمل مثل هذا الملاك، لكن لا بأس هي فقط تريد أن تحصل على التدريب في مكتب محامي المخضرم حتى تحصل على عضوية النقابة ، كي تكمل طريقها إلى النجاح أياً كانت العقوبات، ، ولن تنتظر ذلك الرجل الذي يأتي كي يُحكم إغلاق ذلك القفص المذهب، بريقه لن يغني عن نسيم الحياة، لكن لن يتحقق ذلك حتى يوافق والدها، الذب لا يريد لها التعب والتردد على المحاكم ومكاتب المحامين هو فقط يريد لها ملكة مصونة في بيتها

جلست فريدة بجوارهم وبدأت تلهو من بنت عمتها، ثم أشار محمد إلى أمه، أعطى لهم فاكهة من الحقائب المجاورة يا أمي لعلهم قد شعروا بالجوع

كان محمد قد تركهم وهم يحملون الحقائب واشترى لهم بعض الحلوى والفاكهة من مكان قريب، وبعض العصائر ، رغم أن زوجته قد أخبرته أنها أعدت مع أمه مكرونة ودجاج، لأنهم سيصلون متأخرا

أعطت الجدة الموز والتفاح للأطفال، بدأ يحل التعب على الجميع بعد أن هوى الأطفال في مصيدة النعاس من ذلك النسيم المنبعث لهم من نوافذ السيارة، فحملت وردة ذلك الشال من فوق ذراعيها ووضعتة برفق على الأطفال النيام

نظرت ثرية من تلك النافذة التي تجلس بجوارها، بدأت في التقاط ورقة تحملها دوماً في حقيبتها الخاصة، وبدأت تنسج بخيالها بعض الكلمات فتلك القاهرة التي عشقت ترابها، تنظر إليها وهي تحمل في يديها الأخرى صورتها في أربيعيات القرن الماضي

أهذه القاهرة أنظف وأجمل مدن العالم، بعدما نعموا بالنظر لكورنيش النيل
بمياهه الساحرة مع تلك الأشعة الذهبية وتلك الورود التي يفوح منها
العطر، هؤلاء الأحبة الذين لم يجدوا لهم سبيل كي يدلوا بمشاعرهم سوى
أمام مياهه، كي تكون كل قطرة شاهده على لحظاتهم، فلولا ذلك السور
الحديدي الذي أحاطوا به النيل من كل الجهات لغاصوا في مياهه يغسلون
ذنوبهم، من تلك الأكاذيب والوعود التي تحتاج لآلاف المجلدات كي يتم
تأريخها حتى يتعلم العشاق في كل عصر كيف كان حب المصريين، قلبٌ
عالقٌ في السماء، يتراقص على أنغام هطول المطر، ثم يهوي مع أول
أشعة للشمس إلى بؤرة الحقيقة

تنهدت ثرية وبدأت تتركز ذاكرتها عند تلك اللافتة عند سجن طرة، هكذا
كانت تردد "سجنٌ أصغر بداخل سجننا الكبير"، بدأت تفكر ماذا قدمت لنا
الثورة، هل صارت أحوالنا أفضل من ذي قبل، ربما،

الأم تجلس في منتصف الأريكة كلما نظرت لعداد السرعة تجد السائق لم
يتعدى 60 كم في الساعة، تتعجب لماذا لم يتخطى هذا السائق تلك
السرعة، لقد تخطينا الأماكن العامرة بالسكان، ومنطقة حلوان التي تتعالى
أدخنة المصانع سماؤها حتى كادت تتلون بلونها الأحمر الدامي

على الجانب الآخر، رن الهاتف فانتفض محسن من على تلك الأريكة،
لمحت عينيه ذلك الظلام الذي يتخلل النافذة، ما هذا ألم تسطع الشمس حتى
الآن، كيف وأنا لم أنم إلا في السابعة صباحاً

صعق حينما نظر في ساعة الهاتف حتى وجدها الواحدة ، ضرب بيده على
رأسه، وتذكر تلك الليلة التي ظل مترددا فيها على الشرفة وتلك الأريكة
التي تقع أمام شاشة التلفاز يفكر كيف له أن يُفرط هكذا بزوجته

ثم همس قائلاً، الواحدة صباحاً كالواحدة ظهراً، فإذا كانت شمس الظهيرة
تحرق وجوه المارة بإشاعتها

فأشعة الوحدة ليلاً

تمزق قلوبنا اشتياقاً للونس

لقد أضاع صلاة الجمعة، وتذكر كيف كانت زوجته تصنع له أفضل الأجواء، في يوم إجازته أشهى الأطعمة والفواكه لأجله حتى وإن لم يطعم الأطفال منها، وعدم النزول من المنزل احتراماً لوجوده، تمنع ابنتها من الشغب أو الصياح أثناء جلوسه

توقظه في الصباح حتى يذهب باكراً لصلاته، كيف كانت تعينه على بر والدته، والسؤال عن أخوته، فصاح وهو يبكي

-تركت كل هذا بغبائي يارب وقلة حيلتي

ثم قال في حزم " لن أسمح بأن أصبح كذلك مرة أخرى".

السيارة بدأت في السير بين رمال الصحراء، وبدأ نسيم الليل في زيادة موجة الصقيع فبدأ الجميع في غلق النوافذ المحيطة فيما عدا ذلك السائق، لف على وجهه ورأسه ذلك الشال الصوف الذي اعتاد الصعيدين على وضعة على كتفهم فوق الجلاباب

خيم الصمت بين ذلك المنظر البديعي سماء زرقاء ترسم بها النجوم والرمال أروع اللوحات، غاصوا في نوم عميق حتى انتفضوا على صراخ وردة وهي تقول

-لا لا

حينها سمعوا صوتاً مدوياً، وبدأ السائق يفقد السيطرة على السيارة

الفصل السادس

وردة لازالت لا تستوعب ما يحدث، تشعر بالصداع الشديد من كثرة الصراخ، وتتهاوى السيارة على الجانبين، الجميع يدعو بأن تمر الأمور بسلام

السائق يتعامل بحذر مع الموقف يتمسك بمقود السيارة، أجسادهم تترنح يمناً ويساراً، انتقلت أميرة من الأريكة الخلفية، واندفعت رأس فريدة بقوة في الأعلى

ووردة تضم الصغير بين ذراعيها حتى يكاد لا يظهر منه شيئاً، لا تهتم
لأمر جسدها الذي صار يعلو ويهبط ورأسها التي ارتطمت أكثر من مرة
في زجاج النافذة

قامت ثرية بتهدأت الطفلتان وكلما هدأوا عادوا مرة أخرى مع حركة
السيارة يمينا ويسارا بسرعة كبيرة

أمهاتهم يجلسن بالأمام ليس على ألسنتهم سوى الدعاء، حتى توقفت
السيارة، كانت أول كلمة ردها السائق

-الحمد لله مرت الأمور بسلام

تنهد محمد بشدة، وأنزل يده عن باب السيارة الذي تمسك به أثناء انحدار
السيارة، وشعر بالدوار، وضع السائق رأسه فوق مقود السيارة، وبدأ يقول

-لقد نجانا الله من حادثة كادت أن تؤدي بحياتنا جميعاً، لقد حُرمت عجلة
السيارة، فأصدرت دويًا جعلتنا نهوي يمينا ويساراً ولو أنني أوقفت السيارة
في حينها لهوت بنا إلى الجحيم، الحمد لله

نزل السائق من السيارة كي يرى أيهما قد أصيب، تبعه محمد، وبدأت
النسوة في ترديد الشهادة، بدأت أنفاسهم المتصارعة تهدأ، ولا زال الأطفال
يكون، قامت الأمهات بملاطفتهم والتخفيف عنهم

أهدوهم ببعض من الحلوى، فبدأوا في الهدوء، حينها كانت وردة تتأوه من
شدة الألم الذي عانت منه، من كثرة الارتطام بالسيارة

محمد وأشرف يتجولون حول السيارة، أضوا كشافات الهاتف حتى
يتمكنوا من معرفة أي العجلات قد أصابها العطل واتضح بأنها لم تكن
عجلة واحدة بل كانت اليمنى الأمامية واليسرى الخلفية، كان واقع الحدث
عليهم كالصاعقة إذا تمكنوا من تبديل إحدى العجلات بالعجلة البديلة التي
احتفظ بها السائق مسبقاً فكيف يمكنهم أن يصلحوا تلك العجلة الأخرى

بدأوا يلتفون من حولهم، لم يجدوا في تلك الصحراء سوى جبال يروها من بعيد لا يحجز بينهم سوى ذلك الكوبري، وتلك الرمال التي تحيط بالمكان وسماء قد غاب البدر عنها فزادت ظلمة الليل

ماذا عليهم أن يفعلوا الآن، استندت محمد بيده على مقدمة السيارة ونظر إلى هؤلاء الأطفال ثم رفع عينيه إلى السماء مناجياً ربه، ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين

ماذا علي أن أفعل الآن يارب توقف عقلي عن التفكير، نظر إليه أشرف مردداً

-سنجد حلاً بإذن الله

-كيف يا أشرف، لقد توقفنا في تلك الصحراء الشاسعة، حتى السيارات في تلك الساعة المتأخرة من الليل تكاد تكون نادرة الوجود

- لا عليك سيخبرنا الله بما علينا فعله

-هيا نصلح العجلة الأولى أولاً حتى نجد من يصطحبنا لعلاج العجلة الثانية

حاولت النسوة النزول من السيارة لاستنشاق بعض الهواء، وحتى يتمكن من تمرين أقدامهم التي تصلبت من الجلوس بالداخل

لما وجد الأطفال تلك الكراسي خاوية لهم حاول كل منهم أن يجعلها سريراً كي يستريح قليلاً من ذلك العناء

بدأ محمد في مساعدة السائق لتغيير العجلة، محمد الذي تعدى عمره ثلاثة وأربعين عاماً، تتصاعد أنفاسه يتصبب عرقاً، لم يعد بمقدرته فعل مثل تلك الأشياء، لكنه صمد فليس هناك البديل

تنفس الصعداء حينما انتهوا من تغيير العجلات وقاموا بحمل العجلة المصابة في حقيبة السيارة، حينها

وقفوا يتساءلون

-ماذا علينا أن نفعل الآن

رد محمد في غضب

ليس بأيدينا سوى أن ننتظر سيارة تقف لنا كي نحمل العجلة ونذهب لإصلاحها

وقف محمد وأشرف بجوار السيارة، وبدأوا بالتلويح لتلك السيارات التي لا تتعدى الثلاثة تمر كل فترة

كان سائقون السيارات ينظرون إليهم وهم يلوحون يخشون الوقوف لعلها تكون مكيدة، فبعد قيام الثورة افتقد الشعب الثقة حتى في أقرب الناس وحتى في أنفسهم، صاروا يخافون من التعامل مع الغرباء أو معانقة الأقرباء، أصبح الشريف لصاً وأصبح من سفك دماء الثوار هو قائدهم

لم تمر على الثورة سوى عام واحد لا زالت الفوضى تسود كل شيء لازال المجلس العسكري يسيطر على زمام الأمور في البلاد، الشرطة تعمل على استحياء بعدما اتهمها شباب الثورة أنها كانت سبباً رئيسياً في معركة الجمل وقتل قواد الثورة

أما عن الجيش فقد استطاع أن يسيطر على كل شيء، صار الجميع يثور على كل شيء وكأنهم قد أحمدوا بركانهم سنوات طوال حتى ينفجر في آن واحد هم يتمنون أن يشعروا بإنسانيتهم في لمح البصر، عانوا لسنوات طوال ظلوا يعيشون بأقل القليل في رضا وابتسامة يحسدهم الجميع عليها، ولكنهم لم يهنؤا بهذا الرضا كثيراً فقد فقدوا أعز ما يملك المرء الحرية، حرية الفعل والقول، وحتى الحياة

فقدوا أبناءهم في حوادث الطرق والقطارات والحرائق التي دوماً كان سببها هو الماس الكهربائي، هي وتيرة واحدة كتبت على هذا الشعب منذ أن أشرقت شمس الإنسانية، العبودية للفقراء، وعرش الحياة لمن يملك

تنظر في عيون الرجال فتجد دموع القهر تمزق قلوبهم، تكالبت عليهم المسؤولية وليس بأيديهم سوى القليل، فمنهم من يحتضن مياه النيل غرقاً، أو يريحهم من كثرة الجوع فيقتلهم، ومنهم من يشعل نيران القهر في جسده

هكذا مر علينا هذا العام، وصلت المياه الراكدة لسنوات حد الغليان فطفى على سطحها كل شيء ليس له وزن لكن بدل لونه للون براق يخطف الأنظار يبدو منه هو الشخص الأمثل للقيادة

وجوه شوهتها الأقنعة ووجوه أقحمتها الحياة وأرهقت عيونها بريق الجالسون على عرش الترف، لكن لازال بأيديهم باباً واحداً يطل منه النور إليهم، تلك النكت وذلك المزاح الذي يجعلهم يضحكون حد البكاء

كيف لهؤلاء أن يلتفتوا لنفر من الناس تائهون في صحراء، أليس من الممكن أن يكون وجودهم مكيدة تدبر لأي عابر كي يأخذوهم كرهائن، أو يذبحوهم ويتاجروا بأعضائهم، أو حتى للمتاجرة بنسوتهم في الأسواق الأجنبية

مرت أكثر من ساعتين وهم لا زلوا يلوحوا للسيارات، ولما شعرن النسوة بالتعب عادوا إلى مجالسهن داخل السيارة، يحاولن أن يستشعرن الدفء بعيداً عن جو الصحراء القارس الذي أحاط بهن من كل مكان

فحفيف الرياح الذي حمل نسيماً بادراً بدأ يتحول شيئاً فشيئاً إلى صفير شديد يحمل غباراً، فبدأوا في غلق النوافذ وبدأ محمد وأشرف يستشعروا ذلك السقيع ، وذلك الجلباب الأبيض الذي يرتديه أشرف يتطاير من شدة الهواء، لكنه يحاول أن يثبت حتى يتمكن من فعل أي شيء كي يمروا بسلام

ليلي ترى كل ما يحدث فأسندت رأسها على تلك الأريكة الخلفية وأغمضت عينيها بعد أن لفت ذلك الشال حول ذراعيها بإحكام، هي تشعر بذلك البرد يتخلل نوافذ قلبها الساكن

لم يكن الأمر مختلفاً لديها بين الاسكندرية والصعيد، فكلاهما سواء، هي الآن وبعد أن تحطمت أحلامها ولم تلتحق بالثانوي التجاري، فقدت الأمل في كل شيء

تذكرت ذلك اليوم الذي أحضرت فيه نتيجة مرحلة الإعدادية، كانت تتخيل بأن ذلك العام سيمر بسلام كما مرت الأعوام السابقة لكنها صعقت حينما علمت أنها لم تتعدى نصف مجموعها سوى بدرجتين

ظلت ليلى في حيرة شديدة كيف يمكنني أن أكمل مسيرتي كباقي إخوتي، كانت ترى في أعينهم جميعاً بأن ذلك هو عقاب من أستهان، من لم يعمل طيلة العام، لكن بداخلها كانت تعتقد بأن ما تفعل هو الصواب لماذا أرهق عيناى في كتبٍ سيأخذها بائع خردة، وسيأتي من يُحضر إجابات الامتحان

كانت تلهو وتلعب، تعيش حياتها كطفلة، لا يهتمها تلك الأنوثة التي بدت على جسدها، هي فقط تريد أن تعيش، لم تعر اهتماماً لهؤلاء الفتية الذين لا طالما ضايقوها بكلماتهم

-أنظروا لتلك البدينة، هي أكيد من تقضي على طعام العائلة

ليلى تنظر لكلماتهم بسخرية وتمر كالنسمة، بكل صمود، هي لديها حياتها الخاصة التي ترسم خطوطها بعفويتها لا تريد أن تتقمص دور المثقفين ذوي النظارات السوداء، هي فقط تريد أن تستيقظ على رائحة تلك القهوة، في شرفة المنزل تستنشق نسيم الصباح وتكمل يومها في هدوء بعيداً عن صراخ الأطفال بين شاشات التلفاز والانترنت

تتابع ذلك الانسجام ببعض الحلوى التي اعدتها خصيصاً للحفاظ على مزاج يومها العام

لا تأبه لوجوه جدتها وأقاربها العابسة دوماً في وجهها لعدم رضاهم عما تفعل

هي فقط تريد أن تلتقط من الدنيا مشاهد تشعر فيها أنها تحيا بعد أن فقدت ما كان سيميزها عن بعض قرنائها من الفتيات

التعليم، هي ترى أن السبب في فقدانها إياه هم أخوتها الذين لم يشجعوا أبيها على إكمالها له، هم فضلوا أن يظلوا هم الأجدر به بعد مثابرتهم، فقد وجدوا أن ما آلات إليه حياتها هو نتيجة لعدم تحملها المسؤولية بجدية.

لم يمضي الكثير من الوقت حتى شعر الجميع بالاختناق من تلك النوافذ المغلقة، وخصوصاً بعد استيقاظ الصغار وارتفاع صوت الضجيج بالسيارة، أشارت الجدة إليهم ويدها على فمها

لقد شعرت بالاختناق، افتحوا أبواب السيارة

فبدأ محمد في فتح الباب، وخرجوا كي يستنشقوا بعضاً من الهواء البارد، السماء صافية تتلألأ نجومها فتبدي بعض الضوء الطفيف على تلك الجبال الرملية من حولهم، لم يمر الأمر على هؤلاء الصغار مرور الكرام بل أردوا أن يكتشفوا ذلك العالم الذي لا يروه إلا عبر شاشاتهم الصغيرة

اليوم ولأول مرة يرونه على الطبيعة، نزلوا وأصوات ضحكاتهم تعلو في هذا السكون من الليل فيرتد إليهم صداها، حاولوا الاقتراب من ذلك السور الحديدي المحيط بالكوبري ليفصله عن الصحراء

يلامسوه بأناملهم الصغيرة ثم يحاولون تسلقه، لكن ما أن شاهدتهم الجدة حتى صاحت في وجوههم

-أيها الصغار عليكم التراجع بعيداً عن هذا السور، فإذا نزلتم إلى تلك الصحراء في هذا الظلام بين تلك الرمال لن ينجو منكم أحد

تراجع الأطفال لبرهه حتى تغيب عنهم عين الجدة، حاولوا أن يشغلوها ببعض الحديث فتساءلت فريدة

-أمي، أين تلك السلحفاة، والتمساح، ألا يعيشون في الصحراء

-لا يا عزيزتي، تلك الصحراء لا يعيش فيها سوى الحيوانات القادرة على تحمل ندرة المياه لفترات طويلة، أما عن التمساح والسلحفاة فهم يعيشون في الأماكن القريبة من البحار والمستنقعات

حينها تركت أميرة زوجة خالها وجدتها منشغلين في الحديث مع فريدة، وحاولت اختراق ذلك السور بجسدها الضئيل، حتى فوجأ الجميع بأنها قد علقت بسوره وظلت تصرخ

لم تبتعد أرض الصحراء قليلا عن ذلك السور لكن قصر قمته جعلتها
تشعر بأنها إن وطأت قدميها الأرض فقد تهوى وتصاب، صراخها يزداد
مع ذلك الصوت الذي ظل يتصاعد من حولهم، هم لا يدركون ماهية
الصوت ربما هو ريح تصنع صفيرا من حولهم مع هذا السكون
خيم على أمها الخوف وبدأت تصرخ

-أميرة، أبنتي، أنقذها يا أخي، لماذا فعلت هكذا

وبدأت بالاقتراب ومحاولة الإمساك بيد الطفلة، لكن من شدة فزع أميرة
وخوفها من السقوط، بدأت أناملها الصغيرة تتعرق وقدرتها على التمسك
بالسور تتلاشى فلما مدت الأم يدها لتمسك بها هوت الطفلة على تلك
الرمال...

الفصل السابع

لم تتوانى الطفلة عن الصراخ حتى لامس جسدها الأرض ففقدت الوعي
من شدة الخوف، أمها تصرخ وفريضة تبكي لأجلها، خالها محمد يحاول أن
ينزل كي ينقذ الفتاة قبل أن يصيبها مكروه، لكنه يحذرهم مرة أخرى
-ابعدوا الأطفال لسنا على استعداد بأن نفقد أحداً منا

امسكت ليلي وثرية بالأطفال لكن فريضة تحاول أن تشد يدها بعيداً عنهم
عينيها نحو السور، ظل محمد حائراً كيف له أن ينزل وينقذ الطفلة، إذا
استطاع أن ينزل للأسفل فكيف له الصعود وهو يحمل الطفلة

نظر حوله وقلبه يخفق بشدة وصراخهن يدق في رأسه، لا يمكنه التفكير
أمها لا تتوانى عن البكاء، تتمتم بصوتٍ خافت

-كيف لي ان أستمع إلى كلمات أخي، هل يمكن أن أفقد أطفالي هنا، أو أن
نُفقد جميعاً، هل هذه نهايتنا، أم أننا لا زلنا بخير حتى الآن، حتى تلك
السيارات التي تمر بجانبنا ظنوا بأننا وقفنا كي نستريح من عناء السفر.

لكن محمد أهدى في النهاية إلى تلك الأحبال السمكية التي رُبطت بها الحقائق فوق شبكة السيارة، فأشار إلى السائق كي يفكوا بعضاً منها، ربط جزءاً منها في السور ثم تمسك جيداً به ونزل للطفلة على تلك الرمال الباردة و ذلك السقيع الذي تقشعر له الأبدان

ثم حملها بلطفٍ بين ذراعيه وأمسك بالحلل، يشدون الحبل كي يتمكن محمد من الصعود مرة أخرى إليهم، تنفسوا الصعداء حينما لامست مريم وجه فتاتها البارد، كاد قلبها يتوقف حينما رأت جسدها المرتخي وجن جنونها حينما تتابعت الهواجس في رأسها فظنت أنها كادت تفقد طفلتها فظلت تصرخ في وجوههم وهي تحملها بين ذراعيها توجهها نحو كل فردٍ منهم لبرهه

-هيا فليسعفها أحدكم، ابنتي لم تمت

تحاول زوجة أخيها أن تهدأ من روعها

-لا تقلقي يا مريم ستصير الفتاة بخير، أدخلوها إلى السيارة حتى نتمكن من إفاقتها

جلست مريم على تلك الأريكة ولا زالت الطفلة بين أحضانها، تحدثها تحاول إفاقتها، لكن الطفلة غطت في نومٍ عميق

أسرعت الفتيات في تحريك جسدها بلا فائدة ظلت فريدة تبكي بجوارها وهي تهمس في أذنيها

-أميرة هل ستتركيني هنا وحيدة، لا استيقظي، هيا بنا كي نلعب

هي تحاكيها ودموعها منهمة وتمسك بيديها لعلها تشعر بها، أحضرت إيمان زجاجة العطر الخاصة بها ورشت منها القليل حول أنف الطفلة، فبدأ ملامح وجهها في التغير حتى حركت رأسها وبدأت في السعال من شدة تأثير العطر عليها صاحت أمها وهي تحتضنها وتحرك جسدها بين يديها

-ابنتي الحمد لله، أدركت الآن أننا جميعاً نريد لك الخير، نحن نخاف عليك عزيزتي

هي تتحدث لكنها من شدة قلقها أجهشت في البكاء، حتى فتحت الطفلة عينيها ولا مست بأناملها الصغيرة وجه أمها تحاول أن تمسح دموعها

-لا تقلقي يا أمي لقد صرت بخير

تنفسوا جميعاً الصعداء، حتى فاقت الطفلة، كيف لهم أن يبحثوا عن طبيب أو سيارة إسعافٍ هنا في تلك الصحراء التي لا يملكون فيها سوى أن يناجوا ربهم لعله ينجيهم

رن هاتف مريم وهي لا زالت تبكي، فلما رأت أنه زوجها شعرت بأنها نجدة من السماء، فردت مسرعة ولا زالت الطفلة على ذراعيها

- محسن لقد كدنا نفقد أميرة

محسن وهو يصيح – كيف نفقدها، ماذا حدث، اهدأ قليلاً كي أستطيع أن أتفهم ماذا حدث

شدت الطفلة الهاتف من يد أمها وحادثت أبيها بصوتٍ حزين

-بابا، كدت أموت اليوم، لماذا لست معنا يا أبي، ألم تخبرنا بأنك لن تتركنا نعاني مرة أخرى، لن تتركنا بمفردنا

كلمات الفتاة مزقت قلبه

-لا عليك يا فتاتي، لكن كيف يمكنني أن أحضر إليكم الآن، وأنتم على وشك الوصول إلى الصعيد

-لا يا أبي، لا زلنا في تلك الصحراء، لم تسير السيارة سوى القليل، حتى تعطلت، ولا نجد من ينقذنا منها

-أعطني أمك يا أميرة

-مريم ماذا حل بكم، لقد مر على سفركم أكثر من سبع ساعات ألم تصلوا حتى الآن

-نصل إلي أين، ونحن محتجزين لأكثر من خمس ساعات هنا في صحراء الكريمات، لا ندري هل سنستطيع العبور بسلام أم لا

-أخبريني فقط أين أنتم

-نحن في صحراء الكريمات

حينها ضعفت شبكة الهاتف فانقطع الاتصال بينهما، ظل محسن يتقدم خطوة ويتراجع الأخرى، كيف لي أن أذهب إليهم، بعد كل ما فعله أخيها معي، لكن في النهاية عزم أن يذهب إليهم ربما يغير موقفه هذا من نظرتهم إليه الكثير

ربما تشعر زوجته بأنه قد تغير لأجل راحتها وكي يحافظ على بيته من الانهيار، ربما حينها تعرف مريم قدر حبه لها، فتهون معه كل الصعاب حمل الجاكيت الخاص به بعد أن بدل ملابسه، ونزل مسرعاً، هو فقط يفكر في زوجته، حتى أنه لم يسمع صوت أمه وهي تنادي عليه

لكن رنت كلماتها في أذنيه " إذا قررت العودة لمريم فلتذهبوا معاً إلى الجحيم، لا مكان لكم في بيتي "

ذهب نحو موقف السيارات، ظل ينتظر سيارة لمدة وحتى تلك السيارات التي وقفت له لم يوافق سائقوها على الذهاب أن يقلوه للصحراء، لكنه في النهاية وجد أحدهم بعد أن ضاعف أجرة الرحلة

هدأت فريدة بعد أن فاقت أميرة، وبدأت في مسك يدها

-هيا يا أميرة كي نلعب سوياً خارج السيارة

فربطت وردة على يدها

- دعيها يا فريدة هيا نشاهد الصحراء سوياً

مدت وردة يدها وأعطت الرضيع إلى جدته، طالت فترة نومه، كأنه يشعر كم يعانون، لا يريد ان يزيد قدر معاناتهم ببيكائه

أمسكت فريدة بيد وردة وكلما اقتربت من ذلك السور تذكرت أنها يمكن أن تسقط كما سقطت أميرة فتراجعت لم تجد سوى انها تحرك تلك الرمال من تحت قدميها بذلك الحذاء الذي ترتديه، لا تدري ماذا تخفي لها حبات الرمل هي فقط تعبت بها لعلها تجد فيها متعة اللعب، محاولة أن تكسر حاجز الملل الذي بدأت تشعر به

سرحت وردة في ما حل بهم تلك الليلة لم يكن ليصدقها أحد، ثم همست محدثة نفسها لكني أنا كنت أراها في تلك الأحلام كل ليلة، كنت أرى تلك الرمال تغوص بنا إلى حيث لا ندري، كنت أرى ذلك الظلام، لم أكن أستطيع أن أخبرهم بما رأيت

لن يصدقوا، ولن يتراجع أبي أبداً في موقفه من السفر، فتلك القرية البسيطة في الصعيد هي كل حياته، هي ملجأه الذي يهرول إليه كالطفل الذي يشترق إلى ظل شجرة عتيقة بين شمس تتعاند على رأسه في كل مكان تطأ فيه قدمه.

هي لا زالت تفكر في تلك الأحلام التي راودتها، هل لازال أماننا المزيد حتى نكمل ما رأيته فيها، تركت فريدة يدها وبدأت تلعب في الرمال تصنع منها أشكالاً تتهاوى وتنزلق في نفس الثانية، فهي لم تستخدم في بنائها الماء

لحظة أخرى حتى صرخت الطفلة

-أبي

تصرخ وتبكي وهي لا تدري ماذا حل بها، حاوطها الجميع وهي تمسك بيدها ولا زالت تصرخ من شدة الألم، سلط أبيها الضوء نحو يدها كي يعرف فوجدها تنزف الدماء فلما حاوط الضوء حولها وجد وكأنها رمال تتحرك وتلتوى من حولها، تحاول أن تغوص بين أقدامهم لكن جسده الملون بالأسود جعلهم يرونه بوضوح حينما قربوا الضوء نحوه، فسحق محمد رأسه بقدمه حتى توقفت حركته، وأزاحه بقدمه بعيداً عنهم

أمسك بيد ابنته وقبلها

-لا تقلقي يا طفلاتي لن يصيبك مكروه، سيخف الألم في الحال

الجميع يبكون لأجل فريدة حتى أميرة فزعت وتركت أمها وهي تمسك بيدها الأخرى وتبكي، أمها تصرخ، تحتضنها لا تدري ماذا حل بهم

-لماذا أصر أببك على تلك الرحلة لم يصيبنا منها سوى كل أذى، ماذا سنفعل الآن كيف يمكننا أن نوقف تلك الدماء

- محمد : فليصمت الجميع الآن حتى أتمكن من سحب دمائها الملوثة من لدغة ذلك الثعبان الصغير، حتى لا تتخلل في باقي الجسد

الجميع يترقب بعين حزينه، أبيها رفع عن يدها كُـم ذلك الجاكيت الوردي الذي ترتديه وبدأ في سحب دماء صغيرته بفمه ويبتثها بعيداً، و لا تتوانى عن الصراخ والبكاء، حتى فرغ محمد من ذلك واحتضن الطفلة

-لا تقلقي يا عزيزتي صارت الأمور أفضل الآن

أزاحت وردة ربطة عنقها ولفتها حول يد أختها التي ارتخى كامل جسدها من كثرة الخوف والبكاء، ذلك الرباط الذهبي كان طويلاً بما يكفي على يدها الصغيرة، فامتد للأسفل قليلاً بعد أن ربطته وردة

هم يقفون حولها وكأن أجسادهم قد تصلبت في أماكنهم، حتى صرخت ليلي

-أبي ما هذا هناك أشياء تضيء أمامنا، لا أعرف ما هذا

الضوء تبعه صوت عويل جعلهم يتراجعون للخلف، لكنهم لم يتمكنوا من صنع ساتر بينهم وبين تلك الذئاب، صوت الصراخ والاستغاثة لم يستطع أن يرتفع على صوت تلك الذئاب الجائعة التي أتت بنهم مهرولة نحو تلك الرائحة التي نشرها النسيم في محيطها

بدأت الذئاب بالقرب منهم بحذر ومحمد وأشرف يحاولان إبعاد الصغار والنسوة داخل السيارة

لكن الذئاب لم تستطع تسلق ذلك السور، فابتعدت، كاد محمد يتصلب في مكانه، لكن أشرف صاح في وجهه

-هيا أمكنوا جميعاً داخل السيارة

تمكنوا من دخول الأطفال والنسوة وأغلق باب السيارة لكن قبل أن يدخل
محمد وأشرف للسيارة لمعت عيونهم مرة أخرى وتفاجأوا بنحو خمس
ذئاب يحاوطونهم من كل جانب

واقفين مذهولين، كيف لهم أن يعبروا هذا السور، كيف

مدت الجدة عصا يدها وهي تنادي ولدها

-محمد أضربهم بتلك العصا

حادثها في سخرية

-يا أمي هل تلك العصا ستمنعهم من إلتهامنا

لازال على قميصه بعض الدماء التي نزفتها فريدة لكنه لم يشغل بالاً بها،
هو فقط يريد أن تبتعد تلك الذئاب عنهم وللأبد، يلوح بقدمه وبيده، لكن
الذئاب تظهر أنيابها وهي تتوعد لهم

رفع أشرف ولاعته وحاول أن يشعلها في وجوههم، ولوح محمد بتلك
العصا لكن النيران والعصا تبعدهم خطوات قليلة ثم يعاودوا الاقتراب، لكن
محمد يحاول أن يشغلهم عن السيارة

أغلق بقدمه الباب الأمامي للسيارة، في محاولة منه لإلهائهم بتلك العصا
التي يحملها بيدها، لم يجد جدوى من الهجوم الزائف حاول يفكر وهو
ينظر في عين أحدهم كيف له أن يتخلص منهم

لكنهم لم يعطوه الفرصة لكي يفكر أكثر من ذلك وانقض عليه ثلاثة منهم،
حاول أشرف أن يستدير كي يخيفهم بولاعته لكنهم لم يبتعدوا، ونظر حوله
وجد الآخرين يحاوطونه، يحاولون إسقاط تلك الولاعة من يده

لكنه لازال ثابتاً، ينظر تارة إليهم وتارة إلى صديقه، الصراخ يعلو ويعلو
واللطم أصبح من جميع النسوة، لكن زوجته في عزم بدأت في دفع حماتها

-هيا إذا كان علينا الموت فليموت جميعنا، قومي هيا دعيني أنزل من السيارة

أمسكتا بها مريم والحماة

-إلي أين ستذهبين أيتها المجنونة، هل تريدي الموت

-وهل لي حياة بعد زوجي

-لا تنزلي افسحي لي الطريق فقط للنزول

- إذا كنت ستنزلين من السيارة فسننزل جميعاً، ولتبقى الفتيات مع الأطفال

نزلت علا بحذر ووجدت أن الحل الوحيد هو إشعال النيران حول السيارة حتى تخاف الذئاب وترحل، فحاولت أن تمسك بإحدى حقائب الملابس التي وضعها السائق فوق الشبكة واسندتها على الأريكة ونادت على أشرف اسمعني جيداً

-عليك الآن أن تجلس على الأرض سأرمي نحوك الحقيبة تحاول أن تشعل فيها النيران بالكامل حتى تبتعد تلك الذئاب

هز رأسه بالموافقة، ولازال محمد يعافر ويضرب بكل قوته الذئاب، حتى أصاب أحدهم في وجهه، فصاح بالعويل من الألم، ثم أنقض بأظافره فأصاب محمد في وجهه، حاول أحدهم أن يشده نحوهم أكثر فشده من قدمه فنزع عنها الحذاء

لكن محمد تراجع للخلف مسرعاً حتى لا يتمكن الذئب من قدميه، رمت علا ومريم الحقيبة نحو الذئاب فاعتقدوا أنه انقضاض عليهم فتراجعوا للخلف لبرهه فرفع محمد ولاعته وأشرف وبدأوا في برم النيران في الحقيبة من كل اتجاه

حتى فتح سوستة الحقيبة، وابرم النيران في أحد القطع الموجودة بها كي يتمكن من اشعال البقية فتشتعل الحقيبة بالكامل، لكن الذئاب حاوطوه من الجهة الأخرى والتفوا حول أشرف لكن النسوة جازفوا بحقيبة أخرى نحوهم

لم يجد أشرف بدا من محاولة أخرى فتلك الولاة ليست هي السبيل الأمثل كي يبرم النيران في حقيبة الملابس، صاح نحو النسوة

- أسمعنا جيدا هناك زجاجة من البنزين بجوار الكرسي الخاص بي فليناولني إياها أحذكم " يحدثهم والذئاب لا تكثرث بالعبت في وجهه"

كانت مريم تنصت بحذر شديد لما قال فبحثت بلهفة عن الزجاجة ومنحتها لعلا، رمت بها علا نحو أشرف فزحف نحوها وتلك الذئاب متشبثة بملابسه

يشير إلى محمد لكن الذئاب قد حاوطوه وكادوا يملكوا جسده، فزحف بقوة نحوها وترك الذئاب تفعل ما تريد في جسده النحيل، سكب من الزجاجة حولهم، فصرخ محمد وبدأ ينزف من شدة الجراح التي تسببت فيها الذئاب ولا زالت تحاول أن تلتهم جسده بالكامل، فأمسك ولاعته بقوة وأبرم النيران حولهم وأسكب البقية على حقيبة الملابس حتى يبتعدوا للأبد

تراجع الذئاب مرة أخرى، لكن أحدهم ترك أخوته حول الرجال وترجل بهدوء نحو السيارة، لكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى سمع صوت العويل كأنه نداء، فبعد أن عض أحدهم قدم محمد، اشتعلت النيران في الحقيبة الأولى بقوة جعلتها تنتقل بسرعة لملابس الحقيبة الثانية، فصارت النيران كنصف الدائرة من حولهم

فلما نظر خلفه ووجدهم يتراجعون فأسرع كي يلحق بهم، محمد يتأوه من الألم، وأشرف جسده تملؤه الخدوش من أثار الصدام مع الذئاب

ابتعدت الذئاب ذهبت حيث أتت، أسند محمد رأسه على الأرض، وأمسك بقدمه المصابة، لازالت تنزف، تقدمت زوجته وأمه

-يا حبيبي حاول تنظيف الجرح، حاول إيقاف الدماء

قدمه تؤلمه وتنزف بشدة، هن يبكين من حوله، حاول أشرف النهوض كي يحاول مساعدتهم في إسعاف محمد لكنه لم يستطع ذلك، فسند على يديه وحاول الزحف بالقرب منه

- محمد، لماذا أنتم تبكون من حوله هكذا، ألا ترون أنه في حاجة إلى الإسعاف، دعوني أحاول معه

نظرت إليه الأم في ضجر

- أنظر إلى حالك يا بني، إنك تحتاج من يسعفك

- يا سيدتي علينا أن ننقذ الموقف بأي شكل الآن، مهما صغر ما يمكننا فعله، المهم سلامة محمد

حاولوا أن يسندوا محمد كي يبتعد عن تلك النيران التي كلما أمسكت بقطعة ملابس من أسفل الحقيبة زاد لهيبها، ألفت الفتيات حول أبيهم، أرتمت فريدة بين أحضانه وبكت

-أبي، لا تتركني يا أبي

ثم لامست بيدها قدم أبيها المصابة فصرخ والدها، رفعت يدها إلى السماء قائلة

-يا رب أجعل الإصابة في قدمي أنا

قالتها بلهجة الصغار فجعلتهم جميعاً يتضحكون عليها، كلماتها الصادقة أخرجتهم من تلك الحالة التي هيمنت على الجميع، فلما رأتهم يسخرون من كلماتها أستحت الطفلة وهولت لتختبيء بين أحضان أبيها

فصرخ محمد في وجوههم

-علا، مريم

-ماذا بك، أخبرنا

-أنظروا

الفصل الثامن

أنظروا

ردها محمد وهو يشير إلى الفتاة بكل غضب

-الفتاة درجة حرارتها مرتفعة للغاية، كيف لكم ألا تشعروا بها كل هذا الوقت

ضممتها أمها وهي تتحسسها

-أبنتي ألطف بنا يا الله، كيف لنا أن نخفض درجة حرارتها، وكيف لنا بعلاج قدمك المصابة

حاول أشرف أن يتدارك الموقف، وبدأ بمسك محمد من يده

-لا عليكم، هيا بنا حمل محمد إلى السيارة حتى يستريح قليلاً

أتكأ محمد على أشرف وزوجته علا، وهو يربت على يدها، ويهمس في أذنها

-لا تقلقي عزيزتي سأصير بخير

سمعت الأم همس ولدها فرفعت يدها عنه ونظرت بوجه عابس لهما ثم تركتهم يساعدوا ولدها حتى جلس للسيارة، لم يتمكن من الجلوس في الكرسي الأمامي فجعلوه يجلس على الأريكة التي في المنتصف ليمدد قدمه

تحسست الزوجة الجرح، فصاح

-لا عليكِ مني الآن، تابعي ابنتك وسيتولى أشرف الأمر، فما سيطيب جراحي لن يقوى عليه قلبك

نظرت علا إلى الحماة

-كيف لنا أن نخفض من حرارتها

-أي قطعة من الملابس بلليها بالماء وضعيها فوق رأس الفتاة، ودعيها تستريح في الأريكة الخلفية

فحاولت ثرية المرور ببطية من حول والدها لكي تقوم بأمر الكمادات لفريدة، وتبقيها نائمة على رجلها

محمد : مريم، ألم تحضروا بين تلك الأغراض التي أحضرتموها سكيناً ولو صغير، يقولها والنيران بدأ لهيبها في الهدوء

- نعم أخي أتذكر أننا قد أحضرناها مع أغراض المطبخ التي أشتريتها زوجتك

- هل تتذكري في أي حقيبة وضعت

- نعم

- هيا أحضريها

ثرية : أنتظر يا أبي ماذا ستفعل بها، انتظر سأهاتف الإسعاف

-أين كانت فكرتك منذ ست ساعات ونحن هنا في الصحراء وقبل حدوث كل هذا

-عذرا أبي لم تخطر في بالي الفكرة إلا الآن" تقولها وقد أصابها رد أبيها بالخجل"

أمسكت ثرية بهاتفها وبدأت في الاتصال، هم ينتظرون الرد، وجدتها تساعد مريم في إنزال الحقيبة كي يحضروا السكين، نظر إليها أبيها وهو يتألم

-هل ردوا عليك

تلعثمت ثرية في الرد على أبيها

-لا لا يا أبي

وفي أثناء حديثها له، رد شخص في كل وقار

-إسعاف القاهرة أهلاً بحضرتك

-أهلاً ببيك، لقد أصيب أبي ونريد نقله للمشفى

-نريد من سيادتك العنوان

-أين نحن يا أبي

-صحراء الكريمات، "يقولها وهو يصرخ من الألم"

-هل هي كما سمعت سيدتي

-نعم لقد علقنا في الصحراء منذ أكثر من ست ساعات لم تقف لنا سيارة واحدة لتساعدنا، وأملنا الوحيد هو أن تأتي تلك السيارة كي تقلنا أو على الأقل تقل أبي من هنا

- حسناً، سنأتي في الحال

- أبي، إنهم سيأتون

- هيا يا أشرف سخن هذا السكين قبل أن تنطفأ النيران

- انتظر يا أبي

- لا تستمع لها هيا

أخذ السكين من يد مريم وذهب كي يضعه على تلك النار الذي بدأ الهواء في تهدئة حميتها، لكن أشرف قام بتوجيه السكين في كل مرة إلى مصدر اللهب حتى يتمكن من أن يتخلص صديقه من هذا الألم الذي يعانيه

ثرية تحمل زجاجة المياه كلما سحبت الطرحة السخونة من جسد أختها بللتها بالمياه مرة أخرى، أختها غطت في نوم عميق، تهمهم بكلمات غير مفهومة، جسدها بالكامل يتصبب عرقاً من ارتفاع حرارته

حمل أشرف السكين بعد ان تأكد أنه وصل لدرجة الحرارة المطلوبة، وأبعدهم جميعاً عن محمد كي يتمكن من كي جراحه حتى يتوقف عن النزيف أغلق محمد عيناه وشد على ذلك الجاكيت بأسنانه بقوة فلما لمست السكين قدمه أصدرت صوتاً كصوت الشواء، وصرخ محمد صرخة اهتزت لأجلها تلك الجبال التي حاوطت الصحراء، لكن أشرف لم يتوانى فقد رفع السكين ووضعها مرة أخرى حتى يقضي على النزيف تماماً فصرخ محمد مرة أخرى حتى أسند رأسه على زجاج النافذة وفقد الوعي

الجميع يبكي من حوله ويدعو له، لكن أشرف حادثهم بهدوء

-أصمتوا دعوه يرتاح قليلاً، فلتمنحه إحداكن شالاً كي لا يشعر بالبرودة

فرفعن كلهن الشال لكن أشرف ألتقط شال زوجته وفرده على محمد، ثم ذهب للتخلص من تلك النيران المحيطة ومحاولة إنقاذ تلك الملابس المتبقية، لكن والدته محمد نادته

-أشرف اتركها أهم شيء الآن هي سلامة ابني

قالتها وهي تنظر لزوجته بضجر، هي تقولها لأنها تعلم أنها حقيبة ملابس زوجته وبناته، لازالت حقيبتها هي وبناتها بخير بالسيارة، لم تعر علا لكلمات الحماة اهتماماً، هي فقط تنظر لحالهم، وما حل ببناتها وزوجها لازالت تسأل ثرية

-أين الإسعاف، ألم يخبروك بأنهم سيحضرون في الحال

نظرت إليها ثرية من النافذة المجاورة لها بألم، لم ترد، هي تعلم جيداً بأن الإسعاف لن تأتي، هذه ليست المرة الأولى التي تتأخر فيها، هكذا صار الحال بعدما ثار الجميع على كل شيء

وصارت الدولة تهدد البعض خوفاً من ثورة أخرى تؤدي بحياة الجميع، لكن هل ما فعلوه صحيحاً، هم يروا الآن بأعينهم نتيجة ما تعتبره الدولة صحيحاً، وأنه خطة جيدة للتخفيف عن الشعب الذي عانى لسنوات

ألم يكن من الأفضل أن تعييننا نحن الشباب أن نشد الرحال إلى الحلم، إلى واقع أفضل، إلى العمل، أن نعمل بجد، ومن سينجح سيجد من يثني عليه ويشجعه ومن اجتهد ولم يلقى نجاحه ستقف الدولة بجانبه

أم أننا سنظل هكذا شهادات نحصل عليها من الدولة كي نبروزها ونضعها على جدران عش الزوجية، كي يراها أبنائنا وأحفادنا، نزيل عنها الغبار فقط لكي تلمع في عيون الزائرين

وحتى إن منت علينا الدولة بوظيفة، من منا يعمل ما يحب، أو ما يجيد،
الدكتور كان يتمنى أن يصبح معلماً، فيظل يحلم بتلاميذه ويهوي بمرضاه
إلى الجحيم، والمعلم كان يتمنى أن يصير طياراً، فيظل يحلم بالسفر
ويصحح الامتحانات وهو في دولة أخرى حتى يتخلص من ملل التدريس
هكذا صرنا يا أمي كيف لعامل الإسعاف أن يحضر في ميعاده، ماذا
سيحدث إن أزهق المزيد من الأرواح على الطرقات، هناك المزيد من
المقابر لهم.

الفتاة نائمة على قدميها لازالت تتابع التخاريف، لم تفهم منها ثرية سوى
كلمة واحدة "بابا"، دمعت عين ثرية لكنها مسحتها على الفور وحاولت أن
تصطنع التماسك، فكلّ منهم يحمل المزيد من الألم، لا يتفوه به، لكنه يشعل
قلبه جزناً

فكر أشرف أن يصعد للسيارة للاستراحة قليلاً فلما نظر إلى تلك النسوة
الاتي يقفن في الهواء، أيقن أنها كبيرة في حقه، فبدأ في سؤالهم
-هيا لنبحث عن أي شيء لنفتش به الأرض ونجلس عليها، حتى نتمكن
من الرحيل

كلّ منهم وضع قطعة من الملابس على الأرض وجلس عليها، وأشارت
علا لمريم

-فلتستريحي بالسيارة حبيبتي، عليك أن تريحي ظهرك، حتى لا يصاب
الطفل بأذى

نظرت إليها مريم بابتسامة وامسكت ظهرها وهي تتأوه وجلست في
الكرسي الأمامي من السيارة

اسند أشرف رأسه على إطارات السيارة، وأغلق عينيه، كادت تنهمر
دمعاً، لكنه أبى أن تراها النساء

تذكر زوجته التي لا زالت في شهرها الثالث، لم يمر على زواجه سوى
أربعة أشهر فقط، لماذا لم أنصت إليها هذه المرة، هي تشعر بحالي، كم

مرةٍ حذرتني من بعض الرحلات، ولم أسافر لها وكانت بالفعل المزيد من الحوادث

أنا من صمم اليوم على تلك الرحلة حتى أتمكن من توفير المزيد من الأموال لولادتها، هي تقول لي دائماً، " أنت عندي بكل كنوز الدنيا، أهم شيء لدي هو أن تكون بخير"، هكذا حياتي تلك الزوجة التي جعلتني مستعداً أن أنحت في الصخر حتى أجعلها أميرة

تذكرت اليوم وذلك الذئب ينظر إلي، كيف كنت أداعب صغيرنا وأحادثه وأنا أنصت لحركته في بطن أمه

نظل طيلة اليوم نتحدث إليه كأنه بيننا، كم كنا نشواق لوجوده، بعد أن حاربنا لزواجنا لسنوات طوال، لكن القلوب تنتصر حينما تكون صادقة، لم يتوقع من حولنا أن تنتصر، وكان طفلنا هو الكنز الأول لهذا النصر

كيف لأمي أن تعيش بدوني، تلك المرأة الكفيفة، التي تحتاج إلينا في كل خطوة تخطوها، كيف ستقدر زوجتي الحامل على رعايتها وحدها، يضرب رأسه بالسيارة وهو يفكر

ففزعت الجدة

-ماذا بك يا بني، ماذا حدث

أشرف : لا يا أمي لا عليك، أصابني بعض الصداع فقط

مريم لازالت تشاهد في صمت، هل سيأتي محسن كما وعدني، أم أنه سيظل كما اعتدت على موافقه، الخذلان هو المصدر الوحيد للحلول لديه، لكن هو الآن مهدد بانھیار المنزل، كيف له أن يتراجع بعد الآن، إذا لم يتخذ موقفاً فلن أعود له مرة أخرى

محسن تتناوب عليه الأفكار والمشاعر، هو سعيد من أنه ولأول مرة يشعر بالشجاعة نحو موقف ما لا يخشى عواقبه، لكنه لازال خوفه يسيطر عليه، ماذا حل بهم، هل أصبحوا الآن بخير، يحاول الاتصال، لكن شبكة الهاتف بها المزيد من المشاكل

ينظر إلى السائق الذي يقود وعينه تغفل لثواني ثم يستفيق مفزعاً
-أيها السائق، هل تريد النوم الآن ونحن على الطريق، أوقف السيارة على الفور

-لا يا سيدي، لقد تناولت أقراصاً مكننتي من القيادة لثلاث أيام متواصلة
دون نوم، كيف لي أن أنام الآن

همهم محسن، فليحفظنا الله، علنا نصل لهم بسلام، علي أن أتحمل هذا
السمين، لم يعد بيدي سوى أن أتبعه، وأحاول بين الحين والآخر إفاقة،
ضغط على زر المسجل، حتى يشغل بعض الأغاني ذات الصوت العالي
التي تصنع الضوضاء حتى لا يظل نائماً هكذا لكنه كلما نظر إلى عينه
وجدها هكذا، حتى غلبه النعاس وفزع على صوت سيارة تحاول تنبهم
بالانعطاف بعيداً عنها، فلما نظر إلى السائق وجده غط في نوم عميق

فصاح

-أيها السائق، سنصدم بالسيارة، ففزع السائق ولما حاول الإمساك بمقود
السيارة،

حينها كان الجميع قد غط في نوم عميق كل على حاله، حتى من جلسوا
على الأرض

راودتهم المزيد من تلك الأحلام التي تقشعر لها الأبدان، لكن أجسادهم
المتهاكة لم تستطع أن تغلب النوم

لم يغفلوا كثيراً لكنهم انتفضوا على صوتاً مدوياً يأتي من بعيد...

الفصل التاسع

انتفض الجميع على صوتاً مدوياً، فصاحت الجدة ولدي، محمد،

-وصاحت الزوجة أبنتي

فنهضوا ليروا ماذا حدث بدأوا يفتشوا بين النائمين، لكن لفت انتباههم ذلك
الضوء الذي يوحى بوجود نيران بالقرب منهم، فصاح أشرف هناك أناس

قريبين من هنا سأذهب إليهم لعلنا نجد في طريقهم النجاة
أمسكت الجدة بيده ثم قالت

- أبق هنا حتى لا يصيبك مكروه

-لا عليك يا أمي لن يحدث لنا أبشع مما رأينا

هرول أشرف متتبعا ضوء تلك النيران، لم يبعد الضوء سوى 400 متر
فقط ، ذهل أشرف حينما رأى تلك السيارة منقلبة رأسا على عقب وبالخلف
سيارة أخرى قد تهشمت مقدمتها

النيران لاحقت تلك السيارة الأمامية بالكامل حاول أن يتفحص الأشخاص
بداخل السيارة، لكنه لم يستطيع من شدة لهيب النيران المتصاعدة من
السيارة، فهرول إلى السيارة الثانية، وجد أن السائق تخلل زجاج السيارة
جسده والنزيف لا يتوقف، حاول أن يحرك جسده قليلا ربما يستطيع إنقاذه
لكنه لم يستطع، نظر بالخلف فسمع همهمات من رجل جالسا بالسيارة، فمه
ينزف فتحرك أشرف على الفور نحو باب السيارة محاولا إنقاذه، حاول
فتح الباب لكنه كان مستعصيا أثر الصدمة التي أصابت السيارة، كان يفتح
الباب وينظر إلى تلك النيران التي تتصاعد تتآكل من شدتها إطارات
السيارة، هو يفتح الباب يدفعه بقوة وهو يتمتم

- اقتربت السيارة على الانفجار، هيا

حتى دفع الباب بقدمه بقوة، وبدأ بسحب ذلك الرجل للخارج، رفع يده على
كتفه وخطى مسرعا بعيدا عن السيارتين، إذا انفجرت إحداها ستشرب النار
في الثانية ولن ينجو منهما أحدا، يحاول في جر جسد هذا الرجل ضئيل
البنية لكن جسده ظل يترنح يمينا ويسارا فاقتدا وعيه، ليس بيد أشرف سوى
حملة ومحاولة الإمساك به جيدا حتى يتخطى محيط النيران
هو يسند الرجل يخشى أن ينظر خلفه، لكن لسانه لم يتوانى عن الدعاء،
كلما تهاوى جسد الرجل، رفعه بيده مرة أخرى حتى كاد يجر جسده،
الخوف يقتل كل معانى القوة بداخله لكن ثقته بربه جعلته على يقين بأنه إن
قُدرَ سيكون، صارت سيارته البجو البيضاء على مرأى من بصره، تنفس

الصعداء لكن ذلك الحمل على كتفه لازال ثقيلاً، السيارات تمر الآن بجواره على جانبي الطريق فبدأت الابتسامة ترسم على وجهه، مردداً

لن نظل في الصحراء لساعات أخرى
النسوة تنتظره بشغف لا يدرون ماذا حل به علا تتفحص زوجها الذي
تصيب عرقاً من شدة الألم، لازال فاقداً وعيه، أو نائماً لا يدرون، لكنها
على يقين بأنه بخير هكذا حدثها قلبها، مريم لاحظت شخص يقترب
ويحمل على كتفه جثة شخص آخر

-أمي ما هذا هل هذا أشرف،

- لا أدري بنيتي هيا بنا كي نتفحص الأمر، مريم تترجل مع والدتها نحوه
وقلبها يخفق بشدة تشعر أن روحها تُسلب منها، لكنها لم تشغل بالها بالأمر
هي فقط تريد أن تطمئن على ذلك السائق الذي كادت رحلتهم أن تودي
بحياته

لما رآهم يقتربون شعر براحة أنه سيتخلص من ذلك الجسد المعلق به، ظل
يخطو ببطيء، حتى كاد أن ينزلق جسد الرجل بالكامل فأسرعت مريم
ووالدتها كي تمسك بهما حاولا أن يمسكا به فلما تحققت مريم من ملامح
ذلك الرجل صاحت

- محسن زوجي، كيف وجدته وأين، وماذا حل به

- فلنكف عن السؤال الآن أحملني عني وإلا سأفقد أنا وعيي

حملته هي ووالدتها، ينتابها الآن مشاعر لا تفهما هل هي سعيدة لأن
زوجها الآن أصبح بجوارها، أم أنها حزينة لأنه لازال فاقداً وعيه، لا
تدري ماذا أصابه، لكن هي تشعر بالفخر لأنه لم يتركها في تلك الصحاري
وحيدة، أراد ان يظل بجانبها ويحاول أن يخرجهم من ذلك المأزق

لكن سيطر عليها ذلك الإحساس الذي طالما شعرت به، هي اشتاقت إليه
كثيراً، والأمر الأهم الآن أنهم اجتمعوا ثانيةً، وضعوه ليستريح بجانب
السيارة وحاولوا إفاقته، ببعض الماء على وجهه، جسده به بعض الخدوش
لعله فقد وعيه من شدة الصدمة

أستفاق مسح سريعا؄ فارتمت مريم بين أحضانه ظلت تبكي؄ نظر حوله
بدهشة؄ أين أنا وكيف أثبت إلى هنا وأين تلك السيارة التي أقلتني؟؄ هو
يتساءل؄ لكنها بين أحضانه جعلته يغمض عينه ويتذكر كم أشتاق إليه
ضمها بين ذراعيه

نظر إليهم السائق نظرة استحياء؄ وضع يده وتحنح حتى يدركوا أنه لازال
بينهم؄ ثم تركهم ووقف بعيدا؄ أحمر وجهها خجلا؄ وتراجعت فقبل محسن
رأسها؄ ومسح بيده تلك الدموع التي أغرقت وجنتيها وهي بين ذراعيه
-لا أريد أن أرى دموعك ثانية؄ لن أسمح لك بالبكاء ما دمت حيا

ابتسمت مريم؄ وأمسكت بيده تطمئنه؄ ثم تساءلت

-هل صرت بخير حبيبي

هو ينظر إليها وهي تتحدث؄ يتأمل ملامحها وينتشي من تلك الابتسامة التي
أنارت وجهها

نظرت في الأرض خجله

-لماذا تتأملني هكذا

-دعيني أستمع كلماتك؄ لقد اشتقت لصوتك الناعم

-دعنا الآن من هذا الغزل " تقولها بصوت خافت؄ وهي تشير إلى والدتها
والسائق؄ اللذان وقفا بعيدا؄ محاولان التلويح لسيارة أخرى"؄ الآن عليك أن
تقف مع السائق كي نمر من تلك الصحراء بسلام؄ فأخي لازال فاقدا وعيه

-ماذا حل به يا مريم

مريم أشارت إليه بأن الوقت لن يسمح بأن تقص عليه الأمر الآن؄ استند
عليها ووقف إلى جوار السائق؄ كلما نظر إلى زوجته استعاد تلك القوة
الكامنة بداخله؄ كأنه يراها لأول مرة؄ بنفس الشغف واللهفة

الآن استطاع أن يقف بجوار السائق كي يستنجدوا بالسائق بعد أن استقبلته
طفله بحفاوة بالغة وبكاء شديد؄ هي الآن تجلس في السيارة عيناها تطل

على أباؤها بسعادة، لم ترهم مترابطين هكذا من قبل، كانت تلك الشجارات
دوماً تذيب كل ما سكن قلوبهم من حب

لكن الآن صاروا كما أرادت هي، تريد أن تراهم كل الدنيا وهي تفتخر بهم
ها هما أبي وأمي

الجنة لم تقوى على الوقوف أكثر من ذلك أنزل لها السائق حقيبة أخرى
تجلس عليها بجوار السيارة، فحتى تلك العصا التي اعتادت الاستناد عليها
كُسرت في صراعهم مع الذئاب

تقترب منهم شاحنة كبيرة لوحا لها لكنها مرت من أمامهم فاعتقدوا بأنها
ستكمل طريقها دون الوقوف، لكن السائق استدأر ووقف لهم على الجانب
الآخر، أذهل الجميع حينما رأوا سائق الشاحنة ينزل ويعبر الطريق لهم

صاحوا

-الحمد لله

بدأ السائق في محادثة أشرف كي يعلم لماذا يقفون في هذا الوقت المتأخر
على ذلك الطريق الوعر، كان يستمع لحديثه وهو في ذهول تام، هل ما
يقصه حدث بالفعل، هل يمكن أن يكون ما مروا به حقيقة أم أنهم مروا
بكابوس لم يجدوا له نهاية حتى الآن

ربت السائق على كتف أشرف مردداً

-لا عليك، سأساعدك، علي أكون سبباً في النجاة، هيا أحضر العجلة كي
تصلحها في الطريق، كي تعود لركابك

رفعوا أيديهم إلى السماء شاكرين الله أن على أولى خطواتهم في النجاة،
التي لم يتبقى عليها سوى دقائق معدودة، حمل أشرف عجلة السيارة
وركب مع سائق الشاحنة، انتابه شعور من الرضا، فقد استجاب الله
لمناجاتهم

بدأ السائق في تشغيل السيارة، لكن المحرك يدور وعجلتها لا تقوى على
السير، تصدر ضجيجاً عالياً، وتثير من حولها الغبار الكثيف، لكنها لا

تتحرك، ظل السائق يحاول في تحريك السيارة لعشر دقائق كاملة، لكن السيارة لا زالت في نفس المكان التي رُكنت فيه منذ دقائق

-ماذا حدث أيها السائق؟

-لا أدري، السيارة لا تريد التحرك

-هيا بنا لنرى ماذا حل بها

انتاب الجميع القلق حينما وجدوا السائق ينزل من الشاحنة يليه أشرف، أردوا أن يروا ماذا حل بالسيارة، حينما لاحظ محسن نزولهم من الشاحنة أسرع إليهم كي يعرف ماذا حدث، علم منهم بأن السيارة لا تريد التحرك، وقف معهم كي يتفحصوها

حتى رأوا كم غاصت عجلاتها في تلك الرمال، حينها أمسك أشرف رأسه بكلتا يديه، وأغلق عينيه من الغضب لم يعد على الفجر سوى ثلاث ساعات فقط، هل يمكثوا هنا لساعات أخرى، حتى تشرق الشمس على أجسادهم التي اشتاقت لساعة فقط من الراحة، فلما شعر السائق بضيقه، ربت على كتفه مردداً

-لا عليك يا عزيزي، هيا كي نحاول إبعاد تلك الرمال عن العجلات، ظلوا لنصف الساعة يحاولون دفع الرمال بعيداً عن السيارة بأيديهم، اعتقد حينها السائق بأن الأمور قد صارت بخير، صعد ليحاول مرة أخرى تحريكها، لكن عجلاتها أصدرت نفس الصوت، فنزل مرة أخرى

أقترح عليهم محسن أن يصعد السائق لتدويرها ويقوم هو وأشرف بحسب العجلات ببعض الأحبال، نظروا له في عجب من فكرته لكن ليس بيدهم حلاً آخر، عليهم أن يحاولوا

سحب السائق أحبالاً غليظة التي كان يربط بها البضائع المنقولة على الشاحنة، وصعد لتدوير السيارة مرة أخرى، وقام أشرف ومحسن بوضع الأحبال بين العجلات الأمامية وسحبها للوراء، حاولوا مرة ثم ثانية، وفي المرة الأخيرة، تحركت السيارة، وصعد أشرف مع السائق

حياتهم محسن بيده انتظر حتى مروا وعاد إلى السيارة لقد صاروا في حالٍ أفضل الآن بعد أن حُلّت مشكلتهم، صار من السهل الآن التحرك، سمعوا صوت محمد وهو يتأوه، وينادي على علا

-علا-

-نعم محمد

سلم عليه محسن، فرحب به محمد بعينِ الذهول، لكن قد اعتاد أن كل شيء هنا يمكن أن يحدث

-متى أتيت؟، وكيف؟ ومن قال لك أين نحن

-مهلاً يا صهري، عليك أن تهدأ، لازال جرحك لم يلتأم بعد

جلس محسن بجواره على مصعد السيارة، وبدأ في الحديث معه، اندهش محمد حينما نظر من حوله فلم يجد أشرف، لكن محسن أخبره بأنه ذهب كي يصلح العجلة

-حقاً، هل وقفت لكم سيارة كي تساعدكم؟

فتعالت ضحكاتهم

-يا أخي لقد ظلت تحاول التحرك لساعة كاملة، حتى فقدنا الأمل في أنها ستسير

ابتسم محمد وشعر بأن الأمر قد هان، ثرية غلبها النعاس ولازالت أختها فريدة نائمة على رجلها، وردة تجلس بالخارج مع جدتها وأمها وعمتها

الجميع ارتسمت على وجوههم الابتسامة، وبدأوا يتعاملوا ويتحدثوا بنفوس هادئة، لكن علا شعرت بأن الحماية قد أنهك جسدها، فحاولت أن توقظ ثرية، كي تستريح الجدة في مكانها في السيارة

-هيا يا خالتي سأوقظ الفتيات كي تستريحي قليلاً

-لا بنيتي سأجلس في ذلك الكرسي الأمامي بجوار أميرة حتى يحضر السائق، ويحين لنا الله بالرحيل

لم يعد أحد سوى محمد ومحسن يقوى على الحديث، هم يستمعون فقط لهم، عيونهم تشتاق لغفلة، لكن أين؟ هل يفترشوا من الرمال سريرا ومن تلك الأحجار وسادة، وتغطيهم نجوم السماء، أم ظلامها الحالك

لازالت رماد تلك الحقايب موجوداً أمامهم شاهداً على تلك الساعة التي كادت أن تودي بهم الذئاب فيها، لولا لطف الله بهم، وقد انزلوا المزيد منها لعل بعضهم يستريح عليها، وافترش بعضهم المزيد من الملابس على الطريق بجوار السيارة كي يستريح قليلاً

لم تمر نصف الساعة حتى توقفت سيارة على الجانب الآخر نزل منها أشرف يحمل العجلة بين يديه ينظر من الجانبين قبل أن يمر، ثم يأتي مسرعاً إليهم وهو سعيد هيا بنا كي نمضي إلى حيث نريد

ابتسم محمد وهو يردد

-أضحك الله سنك يا أشرف، لقد أعدت إلينا البسمة من جديد

توجه إليه محسن، وحاول محمد النهوض لكنهم رفضوا، استرح قليلاً، فأنت لاتقوى على ذلك العمل الآن

-عليك فقط ان تستند علينا كي تنزل من السيارة، ولتحاول إحداكن إيقاظ النائمين حتى نبدل العجلة،

استند محمد على أشرف ومحسن، الجرح لازال يؤلمه، يرفع قدمه عن الأرض، لكن زوجته وأخته رفعت كلّ منهم ذراعا على كتفها كي يقوى على الوقوف حتى ينتهي الرجلان

نزلت ثرية وهي تحمل أختها الصغيرة التي لازالت نائمة، بدلوا العجلة في دقائق معدودة، ثم نظر أشرف إليهم بابتسامة

-هلموا إلى مجالسكم كي نكمل الرحلة

نظر إليه محسن وصمت قليلاً وقبل أن يجمعوا أغراضهم من خارج السيارة تحدث محسن بلهجة غريبة لم يعتادوا عليها من قبل

-ألا زلتم تصرون على إكمال تلك الرحلة؟

ترك كلٌ منهم ما بيده أرضاً، وشردوا، لكنه أكمل

-لا زالت الرحلة أمامها ساعات حتى نصل لأسيوط، لماذا لا نعود إلى ديارنا ونحمد الله على سلامة الجميع، ألم نكتفى بتلك الإصابات التي مررنا بها، هل نود أن نكملها حتى نفقد أحداً في تلك المرة

محمد لازال حائراً مما طرح محسن، هل رأيته هو الصواب الآن، لم أعد أقوى على المزيد من الصراعات مرة أخرى، هل يمكننا أن نكمل الرحلة بسلام أم أن المزيد من المغامرات تنتظرنا على أحر من الجمر

الجميع لازال ينتظر كلمة محمد حتى يعلموا أين ستمضي وجهتهم فيما بعد، لكنه لازال يتفقد الأمور جيداً، حتى لا يندم على اتخاذ قرار خاطئ، يبحث في وجوههم الباهتة عن إجابة على سؤاله، لكن الألم اشتد عليه

-هيا بنا نركب السيارة ثم نفكر في الأمر فيما بعد

جلس بجوار السائق ومحسن في الأمام وعاد كلٌ منهم في مكانه الذي جلس فيه منذ البداية، وضمت ثرية أختها بين أحضانها لم يعد المكان يتسع لها كي تنام، ساد الصمت السيارة، الجميع لا يريد أن يدلي باقتراح قد يؤدي بحياة أحدهم

كسرت وردة حاجز الصمت الذي سيطر على الجميع

-ما رأيك يا أبي، لقد صارت أرواحنا عالقة بين يدي من يتخذ القرار، فالحل الأمثل هو الأخذ برأي أغلبية الأصوات، حتى لا يكون اللوم هو قرارنا الوحيد

-فكرة جيدة يا بنيتي، هيا من يريد العودة فيدلي بصوته

الآن صارت مريم تريد أن تعود إلى عشنا الصغير أكثر من أي يوم مضى، هي لا تريد إلا أن تعود إلى محسن في بيته تعود لحياتها التي افقدتها كثيراً، نظرت إلى زوجها بابتسامة مأكرة ورفعوا سوياً أيديهم

محمد يبتسم يفهم ما يدور ببالهم، تجول أعينهم بين الركاب لعلهم يجدوا من يساندهم الرأي، لكن الجميع يخشى أن يعود، حاول محمد تجاوز الموقف

-الآن الجميع يريد ان نكمل الرحلة؟

- يا أبي لقد مررنا بكثير من الصعاب حتى نعبّر كيلومترات قليلة من الرحلة، هل سنجعل كل معاناتنا تضيق هباءاً، ثم نعود للمنزل مرة أخرى

تعالت ضحكات الأب

-أعلم كم تحبى المغامرات يا ثرية، لكن عليك أن تتوخي الحذر في اتخاذ قرارك، فهو يتعلق بأرواحنا جميعاً

الأب لا زال يحدث ثرية ، لكن وردة كانت منهمكة في التفكير في الأمر من كافة جوانبه، لكنها متيقنة بأنه من الأفضل العودة والتخلي عن هذه الرحلة بشكل كامل، كاد محسن وزوجته ينزلان أيديهم من شدة الإحراج، لكنهم تفاجؤا بوردة

-أنا يا أبي متفقه مع رأي عمتي وعمي محسن

التف الجميع إليها هي ترفع يدها بكل ثقة تعلم ماذا تريد، انبته محمد لما قالت وردة، هو يعلم أنها لا تحب السفر للصعيد، لكن رأيها في هذه المرة مختلفاً، ربما يكون الصواب لكنه قد أخذ قراراً بالتصويت لا يمكنه التراجع الآن

-هيا لنكمل التصويت، لقد صوت ثلاثة منكم للعودة، فمن يريد أن نكمل الرحلة؟

حينها صرخ الطفل، أجهش في البكاء، فحملته أمه كي ترى ما يبكيه، بدأت تتفحصه، حاولت إرضاعه لكنه رفض وبدأ يبكي وهو يفرك بقدمه بعيداً عن رجل أمه..

الفصل العاشر

صراخ الطفل بات لا يحتمل، حتى أنه أيقظ فريدة، ابتسمت في وجهها ثرية، وهي تداعبها

-لا تقلقي يا فريدة، هو فقط يبكي لعله جائع

-أين أبي، أريد أن أجلس بجواره

همست ثرية في أذنها

-حبيبتي، لم يعد الأمر سهلاً الآن، فقد حضر إلينا زوج عمك وهو جالس بجواره الآن، وقدم أهلك لازالت تؤلمه

هزت فريدة رأسها بالموافقة، وبدأت تداعب أميرة، لامست ثرية رأسها كي تطمئن على الحرارة، فابتسمت وهي تقبلها

-لقد تحسنت حبيبتي، دعيني أداعبك قليلاً، لكني افكر في أن أدعك لأميرة، حتى تلعبوا سوياً كما كنتم منذ بداية الرحلة

فريدة، منى الفؤاد، قد عادت لتدب الحياة فينا، عليك أن تصمتوا قليلاً حتى نرى ماذا حل بالطفل الصغير

-حاضر يا أبي

-امنحيني يا ليلي زجاجة من المياه، لعله يبكي من شدة ظمأه

كلما وضعتها على فم الطفل سكبها وواصل البكاء، هي لا تدري، لا يريد الطعام ولا المياه، فماذا حل به، شدت الجدة الطفل من يدها

-فكرك الآن مشغولاً، لا يصفو لهذا الطفل، لماذا لا تفتشي في حفاضته

أزاحت عن الطفل سرواله ونظرت ثم تأففت

- ما هذا لقد انسلخ جلد الطفل، لماذا لا تزيلوا عنه تلك الحفاضة

-لم يعد يا جدتي في الحقيقة أي حفاضة له، هل سنبدل له الحفاضة دون مياه

-ألم يتبقى من الماء زجاجة واحدة يا ليلي

ردت وردة مسرعة

-لا عليك يا جدتي سنحل الأمر ببعض المناديل المبللة، لكن من أين سنحضر له حفاضات جديدة

نظرت إليها جدتها بضجر

-كما كنتم في صغركم بسر اويل قبل أن يخترعون الحفاضات

ألقت الجدة بكلماتها فجعلت صوت الضحكات يهز السيارة، هي تتعجب من ضحكاتهم، تعتبرها سخرية من كلماتها، لكنها لا تشغل بالها هي تنظر إلى ذلك الرضيع الذي أنفطر من كثرة بكائه

-هيا يا وردة فلتعطيني المناديل" تقولها وقد أزالَت السروال، وانتشرت الرائحة في السيارة"

صاح الجميع أفتحوا النوافذ فتحت الجدة باب السيارة وألقت بتلك الحفاضة، بدلت له ملابسه، بدأ الطفل يهدأ شيئاً فشيئاً، رفعته لأمه بغضب

-هيا لقد أنهى بكائه، فلترضعيه

لا زال محمد يخشى أن يصبح القرار هو إكمال الرحلة، لكن عليه أن يكمل التصويت لن ينتظروا كثيراً في الصحراء

-لقد هدأت الأمور، هيا من منكم يريد أن نكمل الرحلة

محمد يرفع يده، تليه زوجته ثم ثرية وهي مبتسمة، أشرف ينتظر حتى ينتهي الجميع لكنه يعرف ماذا يريد، رفع أشرف يده، ثم صاحت والدته

-انتظروني حتى أجفف يدي

-لا عليك يا أمي إننا ننتظرك

-هيا يا بني توكل على الله، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

نزلت كلماتها برداً على قلوب الجميع، أشار محمد إلى السائق بالسير، فبدأ مبتسماً

-على بركة الله

أشرف يقود وهو سعيد، لقد اقترب اللقاء من حبيبته هو ينتظر بشغف حديثه مع ولده الذي لم يتعدى عمره في بطن أمه ثلاثة أشهر، يتمنى أن تمر الرحلة بسلام حتى يشعر بأنه على صواب، هو لا يريد أن يضيع كل هذا الصبر سدى، بداخله يقين ان كل ما مروا به يتبعه خيرٌ كثير

ثرية تداعب الأطفال وهي سعيدة، لقد حان وقت ميعادها مع تلك الطبيعة، الأيام التي تنتظرها طيلة العام حتى تختلي بها، تستنشق منها عبير الحياة، فتزيل عنها غبار العام وتعاسته، يقوى جسدها بنور شمسها ليعبر كل مصاعب ستمر به

تركت الأطفال يمرحون ويتغامزون فيما بينهم، وشردت بذهنها فلمعت عيناها حينما لمحت تلك الجبال من حولها والأهرامات ذات الدرج الصغير، وصفرة الرمال بين أحضان السماء لترسم بنجومها أروع لوحة من ابداع الخالق

يا لبراعة من شيدوا تلك الأهرامات، كنا نظن ونحن صغاراً، أن آثار دولتنا تقتصر على الأهرامات الثلاثة الكبرى في محافظة الجيزة، وبعض المعابد وتمثال أبا الهول، لا يعلم بأمر البقية سوى بعض المثقفين والمهتمين بآثارنا الخالدة، ودراسة التاريخ

ربما قد اكتشفنا الكثير منها لكن بداخلي يقين بأن ما تخفي تلك الرمال في باطنها كنوز تعدت أعمارها آلاف السنين

سيمر الزمان سريعاً كي أراها بعيني، ليس رغبة مني بالافتخار بما صنع أجدادي، لكن كي أتعلم منهم كيف تكون الحضارة، وأي حضارة نعيش الآن وقد تركنا آلاف الأراضي والمساحات الشاسعة تسكنها الزواحف السامة وتكدسنا حول وادي النيل في الدلتا والقاهرة

صار هوسنا بالحياة في المحروسة يهدم كل حلم لبناء دولة يمكن الاعتماد على ابناءها، حلم الشهرة، والحياة تحت الأضواء دائماً هو شغلنا الشاغل

صرنا لا نقوى حتى على التنفس لم يتغيب عن هواءنا النقاء، لكن الأكسجين هجرنا ورحل إلى الطبيعة علنا نهول نحوه، تركنا ما فُطرنا عليه، وغرتنا شاشات صغيرة تقيدنا أمامها مدهولين من شدة اقترابها للواقع، الذي تجمله هي كي نظل على حالنا امامها لا نقوى على المضي ولو لخطوة واحدة بدونها

تتهدت ثرية من شدة الانفعال أصابها الأمر بالضيق حتى كادت تختنق، فحاولت أن تمنح نفسها هدنة ربما يغلبها النعاس، ليلى تراقب فقط مواقفهم، لا تحدث أحداً، مروا بما مروا به خلال الرحلة، وهم يعتقدون انها لا تبالي، وأن ما حدث لم يحرك لها ساكناً

هم لا يدرون ما حل بقلبها المتمزق، هي لا تقوى على الحديث، وفقط ترسم على وجهها تلك الابتسامة الباهتة، وبركان ثائر بداخلها تريد أن لا تصطدم بأحدهم حتى لا تنفجر في وجهه

والدها يتأمل وجوههم في تلك المرأة الأمامية، يعلم ما يسكن دواخلهم لكن عليه الصمت ليترك لكل منهم حرية الاختيار فيما يبوح به، الألم لازال يشتد عليه، لكنه كلما تذكر تلك الحادثة علم بأن كل مرٍ سيمر

يحاول طيلة الوقت ألا يتذكر ما حدث لكن تلك الغفوات المتقطعة لثواني معدودة كأنها ترتطم برأسه كي يستعيد الذكريات، فتذكر منزله وهو يغمره دماء أخيه محمود، وذلك الشجار الذي اعتادوا عليه في كل مرة مع أصدقائه والذي لا بد أن ينتهي بسفك دماءٍ لأحدهم

لكن في تلك المرة كان الأمر مختلفاً، وقع حينها مع أناسٍ لا يرحمون، وجوهم مكشوفة، لا يستحون من الإتجار في الممنوعات، وإدارة بيوت العهر، فكيف لهم أن يتراجعوا عن سفك دماءه لأنه يعلم حقيقتهم وكلمما تخطو قدماه خطوه لا يتوانى عن ترديدها في مجالسه مع الجيران وحتى الغرباء

فكانت قصصه هي الشعلة التي جعلت أحد أهم أعضاء عصاباتهم يقبض عليه متلبساً بعد أن شك ضباط القسم المجاور لهم بأن ما يقص محمود صحيحاً، فبدأوا العمل على مراقبتهم حتى قبض عليه في أحد بيوت العهر وهو يتعاطى الممنوعات، فقضت تلك الحادثة على حياته وأسرته، لأن أقل ما ينتظره هو السجن المؤبد

حينما علم أقاربه بما حدث، وفتشوا في الأمر فكانت كل الدلائل تلقي الضوء على اسم محمود، ذهبوا إلى منزله دون أدنى خوف تعدت أعدادهم الثلاثون رجلاً، يقسمون أنفسهم فمنهم من يقف على مدخل المنطقة حتى يمنع أي شخص يستنجدون به من العبور، وآخرون يقفون على ناصيتي الشارع ثم ذهب الباقي يحملون عصي خشبية غليظة يتخللها بعض الصلب

أو بنادق آلية منذ ان دخلوا إلى الشارع وهم يرفعونها ويضربون رصاصات في الهواء حتى يمنعوا ساكنوا الشارع من رؤية ما يودون فعله، أجسادهم قوية البنيان كمن نراهم في صالات كمال الأجسام، وجوههم تتصبب عرقاً من شدة الغضب، يتقدمهم أخو القائد المسجون

رفع تلك العصا وبدأ في الدق بشدة على باب المنزل حتى كاد أن يخلعه بيده، فزع جميع من في المنزل ونزلوا إلى الأسفل لم يكن محمد هناك كان يصلى الجمعة، أخيه فقط كان يجلس مع أمه في الأسفل وصاح في وجوههم أذهبوا إلى الداخل أنتم دعوني أنا لهم

لم يخشى من تلك الطريقة التي ينادون بها على اسمه، يرددون

-هيا أرني نفسك أيها الصبي، هل تعتقد أنك يمكنك الإيقاع بنا

ذهب لفتح الباب دون تفكير، ثم نظر إليهم في ضجر

-ألا تدركون أيها الرجال بأن للبيوت حرمة، أم أن كثرة الممنوع في دمائكم جعلت الأخلاق منعدمة

تقدم إليه سمير في غضب ورفع يده كي يصفعه على وجهه، لكن محمود أمسك بها، وقرب من وجهه وهو يهمس

لست أنا من يفعل به ذلك أيها الغبي، لقد أخطأ أخيك وعليه أن يتحمل
نتيجة خطئه

الصراخ هو المسيطر حولهم ورفقاء سمير يخافون أن يقتربوا حتى يسمح
لهم هو كلما سمعوا صوت الصراخ والعويل يزداد يضربون طلقات متتالية
حتى يهدأ السكان

حاول الناس سكب الماء الساخن فوق رؤوسهم، لكنهم لم يصابوا إصابات
بالغة، قذفوهم بالزجاج من شرف شققهم لما لم يجدوا جدوى حاولوا
الاتصال بالشرطة

فلما علم سمير ومن معه، صاحوا بالجميع من سيؤذينا هنا سيدفع حياته
وحياة أبنائه ثمناً لشهامته، ومن الأفضل أن تتراجعوا، أخلدوا هيا إلى
النوم، أسرع الجميع إلى غلق نوافذهم وعادوا وهم يرتجفون إلى الداخل،
حتى أنهم أغلقوا الأنوار وخلد أغلبهم للنوم يرتعش

لازال محمود يقف في وجه سمير، وعائلته بالداخل تصرخ وتصيح
ينظرون إلى تلك الأسلحة التي يحملونها ولا يقوون حتى على الوقوف
خلف هذا الباب الذي احكم محمود إغلاقه حتى لا يتمكن هذا المجنون من
الدخول وتصير نصيبة ووصمة عار في حق رجال العائلة

لازال الأمر بين محمود وسمير هو مجرد نقاش طائش، محمود يتساءل
بداخله كيف لهم بكل تلك الجرأة يأتون لمشاجرتي بكل تلك الأسلحة في
وضوح النهار، وما العجب في ذلك هم قواد العهر وتلاميذ الشيطان، فكيف
لهم أن يخافوا من نور الحق، إذا كانت كلماتهم الباطلة هي من لها السيادة

لازالت وجوههم تلقي تلك النظرات التي تحكي الكثير، أستغاظ سمير
حينما دفعه محمود بيده، فهو رغم حجم جسده الضئيل لديه قوة شديدة
يدفعه بها للوراء حتى لامس جسد سمير الحائط حينها تكالب عليه
الآخرون بضربات مشينة، لكن عائلته لم ينتظروا كثيرا فقد هاتفوا محمد
وأبلغوه بما حدث، وهاتفوا قسم الشرطة القريب منهم وبعض أقاربهم الذين
يسكنون بالجوار

لم يلبث محمد الكثير، فبعدما سمع بما حدث هرول بجلبابه الأبيض نحو المنزل لكن الطريق مغلق، حاول المرور من طريق آخر وقبل أن يقترب من هؤلاء الفتية هاتف هو الآخر بعض شباب العائلة

لما أخبر من يقطعون الشارع على المارة بأنه أخو محسن، هاتفوا سمير ومن معه فسمح له بأن يتركوه مردداً

-دعونا نتسلى عليه قليلاً حينما يرى أخيه وقد سال دمه ويلفظ أنفاسه الأخيرة

تعالت ضحكاتهم واقتربوا منه وعيونهم تملأها الشر يريدون أن يقتنصوا روحه، كما تقتنص الأسود فريستها

لكن الفتيات لم ينتظرن كثيراً، لن يتركوا العم يستبيح هؤلاء السافلين دمه، أخذوا من يد جدتهم المفتاح وهرولوا وهم يحملون كل ما يمتلكون في منزلهم من أسلحة بيضاء بشتى أحجامها

حاولوا لبرهة تشتيت انتباههم، حتى فوجأ الجميع بمحمد وهو يهرول نحوهم، وبهؤلاء الشباب الذين تسلقوا الأسطح للحاق به، صارت الأعداد تتزايد والضرب صار مبرحاً، سمير وأعوانه يتراجعون للوراء من جراءة هؤلاء الشباب

نفذت أسلحتهم من الرصاص بعد أن أطلقوها جميعاً في الهواء، سحب محمود جنزير البوابة وبدأ في توجيهه نحوهم مباشرة، وكل منهم يضرب بعصاه، الدماء بدأت تسيل، كلما أصيب أحدهم وفقد وعيه حمله آخرون وامرهم محمد بإدخاله للمنزل، ليقوموا بتطبيبه حتى تأتي الشرطة

في سهوة من محمد وأثناء ما كان محمود منهمكاً في ضرب من يريدون قتله، أنقض أحدهم عليه من الخلف فضربه ضربة شديدة على رأسه فوق أرضاً وفقد وعيه سحبه محمد إلى الداخل وعيناه تزرعان الدمع حزناً عليه تركهم يتقاتلون بالخارج وجلس أرضاً بجلبابه الذي لطح اللون الأحمر نقاؤه

ضم أخيه لحضنه وهو يبكي

-لماذا فعلت بنفسك هكذا، ليس لي أخ سواك، لماذا تفتح صدرك للدنيا، هل اعتقدت أن الحق هو من يفوز، ألا ترى الدنيا حولنا، هكذا فُعل بك وسيفعلون هذا بكل من يحاول سحب البساط من تحت أرجلهم

هم سادة القوم، الذين يدعون الفضيلة، لماذا تمزق قلبي عليك يا أخي في كل مرة، ألا تتعلم بأن من يتلاعب بالنار سيأتي اليوم ويسقى من لهيبها، آه يا أخي، استيقظ أستفيق، قم كي تأخذ حقك منهم

أمه تبكي بحرقة تتحسس ملابسه، لعله يحرك جسده، دماؤه تسيل، أبناء أخيه يكون عليه

-لا تقلق يا أبي لقد هاتفنا الشرطة وستأتي في الحال

لم يمر القليل حتى اجتاحت سيارات الشرطة الشارع والأزقة المجاورة، وتم القبض على مرافقين سمير الذين كلفهم بقطع الشارع على المارة بتهمة قطع الطرقات، ثم دخلت للشارع سيارة نزل منها ضابط برتبة عالية يحمل بيده أوراق وقلم يسأل هؤلاء الضباط المحيطين

تم القبض على الجميع ولما راوا حالة محمد حاولوا فقط ان يأخذوا أقواله عن الحادث وتم الاتصال بالإسعاف من قبل الشرطة، دخلت السيارات حملت المصابين ومحمد لا يريد ان يترك أخيه

لكن المسعفون حاولوا تهدأته وذهب محمد معه للمشفى، ظل محمود لساعات طويلة في غرفة العمليات من شدة الضربة، لكن لعلها الضربة التي أصابته بالتعقل وعدم التدخل مرة أخرى في شؤون الآخرين

تنهد حينها محمد وردد

-وحتى في ذلك، إن كان قد تعلم، فقد مات على يد أحدهم

سمع محسن كلماته تلك فسأله

-ماذا تقول، هل تحادثني يا أخي

-لا لا يا محسن لقد تذكرت شيئاً فحسب

ساد الصمت ثانية، لكن السائق تفاجيء بسيارة تقف على بعد أميال
أضوائها تنير وتنطفئ، ويقف حولها بعض الرجال يشيرون لهم بالتوقف

الفصل الحادي عشر

بدأ أشرف في تهدأت سرعة السيارة، وحاول أن يتحقق من هؤلاء الرجال،
يرتدون جلابيب ألوانها تميل إلى الأسود يضعون على رؤوسهم شيلان
بيضاء، يلفونها حول وجوههم لا يرى منهم سوى العيون

يحملون رشاشات آلية ويتراصون بعيون ثاقبة، يعرفون ما يريدونه،
محسن يجلس بجواره، يهمس في أذنه

-من هؤلاء وماذا يريدون منا

-لا أدري دعنا نتعامل معهم بهدوء وأخفض صوتك حتى لا نزعج من
معنا

يقترب وقلبه يخفق بشدة لكنه يتعامل بثقة، أقترب هؤلاء الملتمين من
السيارة، وبدأوا في الحديث معه

-هيا أوقف السيارة وأنزل أنت ومن معك

-لماذا، ومن أنتم

وجه أحدهم السلاح في وجهه بين صدمة من الجميع، وهو يقول بثقة

-لا تجادل، حتى لا تكون حياتك هي الثمن

فتح أحدهم باب السيارة وهو يوجه السلاح صوب الركاب، فصرخت
مريم، فصاح بغلظة

-اصمتي، لا أريد أن أسمع صوت أحدكم حرصاً على سلامتكم

نظرت لهؤلاء الرجال الذين ينزلون من السيارة مكبلين الأيدي ووجوههم
مغطاة بوشاح أسود، لا يروا أمامهم فوضعت رأسها أرضاً وصمتت

نزل الجميع في صفٍ واحد الجميع مكبل الأيدي ومغمى أعينهم، حتى
الفتيات لم يتركوا سوى الصغار، بدأوا في التحرك، ورؤوس تلك الأسلحة
مغروسة في ظهورهم حتى لا يستطيعوا الهروب

قام باقي الأفراد بتفتيش السيارة رمي ما تبقى من حقائب وأغراض على
الأرض، ثم حملها كغنائم

تتسارع أنفاس ثرية، لكنها تحاول أن تخطو بهدوء، تعلم كم يشعر والدها
الآن بالقهر، تحدث نفسها " لكن علينا الصبر حتى نعلم ماذا يريدون منا،
لا أعلم هل أتقدم وردة وليلى أم أنني صرت الأخيرة بينهم"

أشعر بذلك السلاح مغروسٌ في ظهري، لم نسير كثيراً على الأسفلت،
قادونا نحو درجٍ كدت أتعثر عليه أكثر من مرة، بناءه ضخم ما بين درجاته
الكثير من السنتيمترات، ثم غاصت أقدامنا في الرمال لم نمشي بها لوقتٍ
طويل، ثم قادونا إلى مكان كلما ترحلنا خلاله شعرنا باحتكاك أجسادنا
خلال جدرانها كنت أسمع آهات أخوتي كلما تخللت تلك الجدران أجسادهم،
بدأت أشعر بضيق في التنفس حتى كدت أختنق، تتمايل أجسادنا يمينا
ويسارا حتى نقلل الاحتكاك بتلك الجدران التي تشبه الصخور، بدأت انحني
حتى لا ترتطم رأسي بسقف المكان

حتى فوجئنا بهم يوقفونا

-انتظروا هنا

لا نرى شيئا، ولا يهمس أحدا بشيء، الصمت هو سيد الموقف، صوت
أحدهم يتحدث ليأخذ الإذن بالدخول، غاب لدقائق، ثم سمعنا صوته مرة
أخرى

-هيا فلتخطو ببطيء هنا، اصطحبهم يا رجل

سيرنا لخطواتٍ قليلة، بدأت استنشق الهواء مرة أخرى، وصار جسدي
حرا في ذلك المكان حتى شد أحدهم وثاقي، وذلك الوشاح الأسود لكني لا
أتمكن من فتح عيني فأرحتها لثواني، ثم تأملت المكان في عجب، هل أحلم
كيف فعلوا كل هذا، كيف يعيشون هنا، نحتوا بداخل الجبال أروع منازل

يمكن أن يعيش بها بشر، أتقنوا النحت، وسخروا الطبيعة من حولهم كي تخدم متطلباتهم، حتى المقاعد منحوتة في الجدران وتلك الصالة الفسيحة تتوسط غرف مقسمة بعناية ومغطاة بستائر لا يمكن لشخص الدخول دون استأذان، عيني من الدهشة تتجول المكان، كل ناحية من الجدار تزينها قطعة فاخرة من الأسلحة، ولوحة فنية لخيال أو للطبيعة، قناديل تضيء المكان، وأغلبهم يحملون هواتف نقالة، وهناك سلوك معلقة على الجدران ربما هي لتلفاز

ونظرت باهتمام على تلك الجلسة التي يتوسطها ذلك الشيخ السمين يرتدي شالا أبيض وعباءة كالتي كان يرتديها العرب في القدم،

يحادثونه في همس، فلما أزيل وشاح الرأس من على وجه أبي صاح بهم ذلك الشيخ

-أيها الأغبياء، كيف لكم أن تفعلوا بهم هذا، لقد ألحقتم العار بالعائلة

هم الشيخ من مكانه، وأسرع نحو أبي ثم أمسك بيده

- أعذرنى يا أخي، فقد كلفت فتية بالقيام بمهامنا

محمد لا يقوى على الرؤية، عيناه تؤلمه، لكنه حاول أن يمسك بيد الرجل، صوته مألوفٌ لديه، تحرك وأجلسه الشيخ بجواره، فلما حملق في وجه الشيخ صاح وهو يمد يده كي يصافحه

-الشيخ صالح، مرحبا بك يا أخي، كيف أتينا إليك، هل كنت تمزح معنا، أم ان أولادك قد ضلوا الطريق، والعمل صار شحيجا للدرجة التي تجعلهم يتصيدون حتى معارفكم، أنزل الشيخ رأسه من الخجل، الجميع ينظر إليهم في ذهول، هل نحن في حلم؟، أم أن أبي يعرف هذا الشيخ حقا

الشيخ يصيح في غضب

-أيها الفتيان فلتجلسوا عائلة أبني محمد ولترحبوا بهم، ولتعيدوا إلى سيارتهم كل ما تم أخذه، وجميع مطالبهم مجابهة، ولتدعو النساء كي تعد الطعام لهم

-يا شيخنا لا تتعب نفسك نريد أن نكمل الرحلة لا نرغب في مزيد من التأخير

-لا والله يا محمد، لن تتركونا إلا بعدما تطعموا من طعامنا، علنا نكفر عما أخطأه الصغار

_ أخبرني يا شيخنا كيف هي الأحوال ولماذا نقلتم أماكن اختباءكم، اقترب الشيخ من أذن محمد ثم همس يقول

-كيف لنا أن نبتعد عن هنا يا محمد فتلك المتاهة كأنها تتجول من حولنا وتدمر كل مكان

نظر محمد في عجب،

- متاهة ؟ ، أي متاهة

أكمل الشيخ متاهة الذكريات، كل من يقع في مجالها لا يعد لدنياه مرة أخرى، إلا في حالة واحدة

فتعالت ضحكات محمد وهو يردد: أضحك الله سنك يا أخي لازلتم تصدقوا تلك الشائعات

-لا تستهن بها يا محمد فقد غاب عنا الكثيرون ولم يعد منهم أحدا، سوى القليل

ثم قاطعهم أحد الخدم

-الطعام صار جاهزا

لم يرغب الطعام سوى دقائق معدودة، كأنه قد أعد مسبقا، كانت وليمة كتلك التي يقيمونها في الأفراح أو الحفلات، فذبائح يفوح من دخانها رائحة طيبة، وتلك الكبسة التي يحبها العرب، لكن ليس في مصر، اليوم هي بشكلٍ مختلف، فترتيب الطعام يفتح شهية أي شخص

فاحت روائح الطعام في انوفهم جميعا جلسوا على طبليات من الالومنيوم لونها يميل للصفرة، يأكلون بأيديهم كما نراهم في التلفاز

لم تكن حالتهم تسمح بالأكل بشرافة، هم فقط يريدون الراحة، كان الشيخ
يتمنى أن يبقى محمد لمزيد من الوقت

لكنه ما إن انتهوا من الطعام وصبوا على أيديهم تلك الأباريق ذهبية اللون
كي يغسلوها، اعتذر محمد منه

-علينا النهوض لم يتبقى على الفجر إلا القليل

-لماذا تريد أن تتركنا سريعا يا أخي

-لقد جلسنا معا واطمأنتت عليك يا شيخنا، هلا أمرتهم يرشدونا الطريق

أعطى الشيخ للرجال إشارة كي يرشدوهم الطريق، ولا تأخذوهم من ذلك
الطريق الوعر، أسلكوا طريقا آخر، لكن في تلك المرة رأوا كل شيء،
يداعب النسيم وجوههم حتى كادوا يتساقطوا من شدة التعب، السماء
وزرقتها تتلألأ النجوم، وأقدامهم تحتضن تلك الرمال الباردة

كيف لهم أن يتخيّلوا أن تلك الصحراء الوعرة يمكن ان يعيش بها بشر،
يعيشون حياة مترفة تشبه تلك التي نتخيّلها في الأحلام، مروا بعدها ببعض
مساحات صغيرة يزينها اللون الأخضر، فهمست ليلى متعجبة "لا أدري
أي نبات يمكنه أن ينمو في هذا الجو الجاف نادر الأمطار"، ثم عادوا كي
يصعدوا ذلك السلم من جديد رآته وردة بعينها في تلك المرة من خلال
كشافاتهم الضخمة التي يحملوها بأيديهم هو بناء صخري يشبه الهرم
الصغير، لعل مقاعدهم الخفية التي تبتعد عنه تحتمي في وجوده هو وبعض
البناءات المجاورة فتصير غير مكشوفة للسيارات المارة بالقرب منها

عادوا للسيارة، وقف الرجال يحيون محمد، ويرفعون الحقائب والأغراض
مرة أخرى فوق السيارة، تساءلوا هل يحتاجون أي مساعدة، وقد اقترحوا
عليه بأن يصطحب أحد سياراتهم حتى يطمئنوا على وصولهم سالمين، لكنه
رفض أي مساعدة منهم، وأشار إليهم بأن يسمحوا له بالرحيل

تنفس محمد الصعداء وشعر حينها بأن كثيراً من الأسى سيتخلله أمل، لعل
تلك الجلسة مع هذا الشيخ منحتهم المزيد من القوة ليتحملوا عناء السفر
حتى الوصول، عاود أشرف السير مرة أخرى

أغلبهم فضل الصمت على أن يتحدث فيما مر، ينظرون إلى السماء،
يناجونها

" يتوسلون إلى الشمس ان تتوارى خلف السحب لا تدلي بنورها اليوم حتى
تمنح اعينهم غفوة تربط على قلوبهم المتهاكة ، لكن الشمس شقت السماء
بخطها الأزرق الخافت الفارق بين الليل والنهار
وكأنها تعاند رجاءهم، لا تريد لهم راحة...

محمد شرد بذنه وتذكر طفولته مع الشيخ صالح، كيف عطف عليه والده
حينما ضل طريق أبويه وظل يسعى كي يعود بين أحضانهم مهما ابتعدوا،
كان يعامله كما يعامل ابنه عاشوا معا لثلاث سنوات قبل أن تلد والدته
مريم بسنوات

وفي غضون لحظات وبعد بحثٍ طويل، استطاع والد محمد أن يعثر على
عائلة صالح، حانت اللحظة لفرقهما يمسك بيد من أبيه وعينه معلقة هناك
في ذلك المنزل ومحمد عيناه تملؤها الدموع يمسحها بكفه الصغير، يشد
صالح يده بقوة ويهرول نحو محمد ويرتمي بين أحضانه فيبتسم الوالد
ويربت على قلبيهما

لا تقلقا فلن تفترقا أبدا ستزورنا دوما وسنأتي عندكم في كل حين
كان صالح لم يتعدى 6 سنوات، لم يعرف له عائلة ولم يعيش طفولته سوى
بينهم، لذا كان يحرص دوما على أن يراهم باستمرار

تنهد محمد وهو يتذكر تلك الطفولة وتجول نحو وجوههم، صمت يخيم
على الجميع

أطرافهم ترتعش من انعدام الراحة، لكنهم اقتربوا من بوابة الكُريّمات،
تدافعت السيارات نحو أماكن العبور لأخذ تصاريح المرور من البوابة، لم
يكن الممر الواحد يسمح إلا بمرور السيارات تباعاً، لا يمكن مرور
سيارتين يجاورن بعضهما البعض

سيارتهم تقترب، لكن هناك شاحنة حمراء تقترب منها، لم يأخذ السائق في اعتباره، اعتبرها زحاماً عابراً فقط، لكنه فوجيء بتلك الشاحنة تلتصق بسيارته حتى بدأت تحركها من مكانها، ارتطمت بها بشدة، كادت أن تدهسها تحت عجلاتها العملاقة، لعل السائق لم يرى البيجو البيضاء تمر بجواره فهو يجلس على تلك الشاحنة الضخمة، كيف له أن يلمح وجودها شاهدها ورده وعجز لسانها عن التحذير للسائق، لكنه على الفور توقف، ولم يتوقف سائق الشاحنة، هشم ذلك المصباح الأمامي للسيارة، ولازال لم يتوقف بعد

نزل أشرف من السيارة وركل السيارة بقدمه، ثم ضرب عليها بكلتا راحتيه لعل السائق يتوقف، لما شعر به السائق أوقف السيارة، ونزل كي يري لماذا يصرخ فيه هكذا

-ماذا بك أيها الأحمق لماذا تضرب بكل قوتك شاحنتي

"نظر أشرف في ضجر ثم صاح"

-أيها المعتوه ألم ترى أنك كنت ستودي بحياتنا، لماذا لا تنظر حولك وأن تقود، أم أن مكالمتك أهم من تلك الأرواح التي كانت تقترب من الموت، ألا ترى ذلك المصباح المهشم وتلك السيارة التي تهشمت مقدمتها، عليك أن تتعامل بأدب قبل أن تنزل لتصيح في وجوه البشر

اقترب منه وهز جسده بيده

-كيف لك أن تحدثني بتلك اللهجة أيها الرجل، إن لم تصمت فليس لك فرصة أن تحيا بعد الآن

استفز سائق الشاحنة بكلماته أشرف، فرفع يده كي يصفحه، لما رأى محمد ومحسن أن الوضع يزداد سوءاً، نزلا وابتعدا أشرف والسائق، حاولوا أن يهدأوا الموقف قليلاً، فاستطاعوا أن يوقفوا يده قبل أن يصفع بها الرجل

شاهدتهم الضابط فأسرع إليهم لماذا تقفون هكذا ليصعد كل منكم لسيارته، حتى لا تعطلوا الطريق دعوا السيارات تمر، لم يجادل أشرف كثيراً، لقد أنهكته الرحلة، بقدر يجعله يصمت في تلك المواقف على غير عادته

مروا من البوابة بعد أخذ تلك الورقة التي تسمح لهم بالمرور، وغاصوا في نوم عميق، أرادوا به ألا يستيقظوا إلا وقد وصلوا إلى المنزل، لكن غفوتهم لم تدم لكثير من الوقت، فقد فزعوا على صوت أشرف وهو يصيح، لا ليس للمرة الثانية

الفصل الثاني عشر

يمسك أشرف بمقود السيارة تترنح به يمينا ويسارا، لكن في تلك المرة هم لا يصرخون فقط أعينهم تحملق في الصحراء ونور شمسها الذهبي ينتظرون النهاية، لم يمتلك أيًا منهم ذرة أمل بداخله، يرددون الشهادة، أجسادهم تنهوى على الجانبين، الأطفال يعتقدون أنها رحلة وأن السائق يمازحهم

لكن الوضع بات خطيراً، محمد يمسك بشدة في السيارة لكنه يصطدم رغماً عنه في قدمه، يصرخ يصوت خافت، يحاول رفعها عن الأرض لكنه لا يستطيع، حتى هدأت سرعة السيارة وتوقفت بغتة فارتفعت أجسادهم وارتطمت بسقف السيارة

زفر السائق دخانا ساخنا من ذلك البركان الذي ثار بداخله لشدة خوفه، لم يتساءلوا عما حدث فقط فتحوا النوافذ والأبواب ونزلوا عن السيارة، ابتعد منهم من ذهب للتقيؤ، شعرت مريم بالدوار كادت أن تفقد وعيها، وتقيئت خارج السيارة، ثم جلست تنوح على ما وصلوا إليه وهي تنظر في وجه أخيها

لماذا سمعنا كلامك يا أخي، هل تلك الرحلة ستحيينا، هل نحن لازلنا على قيد الحياة أصلاً أم أننا دخلنا بالخطأ في أحد كوابيس أبتتك وردة، أصفعني حتى أستفيق من ذلك الكابوس الأرعن

ثم أجهشت في البكاء

-ماذا عليك الآن أن تفعل بناء، سيرنا تحت ظلك، ارتضيت عقابك لزوجي، لكن هل سيكون عقابي أني سأموت هنا، ماذا عن هذا الرضيع ما ذنبه أن يموت جوعاً، وماذا عن شباب هؤلاء الأطفال هل كان كل ما اقترفوه أنهم يتبعونا بدون اعتراض، ماذا عن أمك التي هلكت من تلك الرحلة، لا تعد تقوى حتى على الجلوس، استمعنا لخطتك ولرأيك انت وزوجتك، ثم ماذا يا محمد، ماذا، سنموت هنا ظمأً وجوعاً، أنظر حولك إلى تلك الصحراء، التي نقف فيها الآن دون ساتر من لهيب شمسها الذي أحرق أجسادنا من دقائق معدودة، فمال بالك بتلك المدة التي الله وحده يعلم كم ستطول

نظرت إلى زوجته في سخرية

-علام تنتظرين، لقد اخطأت ليس اليوم فقط، بل طيلة عمرك حينما أتبعك كل آراءه، ويقينك أنه دائماً على صواب، لكنه اليوم قد أثبت لنا جميعاً أنه لم يكن على صواب، في كثيرٍ مما مضى

محسن يشاهد زوجته في ذهول تام لم يرها مسبقاً تتحدث مع أخيها بمثل تلك الجراءة، لم يرها تتحدث هكذا من قبل، هل هذه مريم زوجته التي لم يرتفع صوتها أبداً، يغلق عينيه ويحاول أ يهز رأسه ربما هو يحلم، لكن هذا ليس حلماً، إنها هي لازالت تحادثه بتلك الجراءة الغير معهودة عنها

انعطف أشرف بعيداً عنهم جلس يشاهد تلك الجبال الرملية وهي تلمع كالذهب تحت أشعة الشمس، لم يشتهي حينها أو يتراجع من شدة قسوتها على جسده، فلن تكون أكثر قسوة مما هو عليه الآن، هو ليس ميتاً، ولا يشعر بالحياة أيضاً

محسن وجد أن زوجته وضعت أخيها في موقف محرج فحادثها بغضب

-مريم، أصمت لا تحادثي أخيك بتلك اللهجة

-لكن يا محسن

-أصمتي، لا أريد أن أسمع المزيد

أتكأ محمد على زوجته وأشار إليها أن تحضر له أي شيء يمكنه من الجلوس، فحملت أمه حقيبة وأسندتها على السور الصخري أعلى الكوبري، أستند محمد عليهما وجلس، فرد قدمه أمامه ونظر لأخته قائلاً

مريم أيها المؤمنة بقضاء الله وقدره، هل كنت أعلم أن كل هذا سيحدث أم أن قدر الله نافذ، حتى وإن لم نأتي

أحمر وجهها خجلاً، وهي لازالت تطأ رأسها أرضاً، فأكمل حديثه

لم أتخير لكم تلك الرحلة لأنني فقط أريد أن أبتعد عن هذا المنزل الذي كاد فيه أخي يموت بين يدي، كادت أفعاله تلحق بنا وصمة عارٍ للأبد، فقدت فيه أبي قرة عيني، الذي كان يهون علي كل متاعب الدنيا، كنت أشعر أنني إن ملتُ سيقومني، لكني الآن رغم قوتي ضعيف، تلومي حتى زوجتي التي تعيني على الحياة، ترمقها بنظرة سخرية أنها تستمع لما يشعروني بالراحة

-أليست تلك الرحلة هي راحة لنا جميعاً، أمك التي صارت تحدث جدران المنزل من الوحدة التي سجنّت نفسها بها، وبناتي اللاتي ربين على اعتزال الناس، لا يختلطن بأحدٍ منهم، أليس من حقهم التنزه بعيداً عن تلك العزلة

ثم أشار إليها قائلاً

-وأنت أيتها المتمردة، ألم تشناق نفسك لمثل تلك النزهة منذ أن تزوجتِ محسن، ذكريني كم مرة تنزهتم سوياً، ولا مرة واحدة منذ أن دخلتِ منزله، كم مرة ابتسمت من قلبك، أو عدت إلى مريم التي كنت أعرفها، ألم تكن في أشد الحاجة إلى تلك الرحلة

فربطت علا على كتفه

-لا عليك يا محمد فهي غاضبة لأننا جميعاً قد عانينا الكثير بسبب تلك الرحلة، لكن لن نفقد الأمل أبداً

قاطعتهم وردة قائلة

-يا أبي لماذا نترك الرحلة تفعل بنا ما تشاء ونحن مكتوفي الأيدي، هاتفنا الشرطة، والإسعاف أكثر من مرة، وإن لم نفكر بروية لن ينقذنا أحد

التف لها والدها

-وماذا علينا أن نفعل الآن يا بنيتي

-لماذا لم تفكر يا أبي في محادثة أحد أبناء عمومتك، أنا أعلم جيداً أنهم لن يتخلوا عنا

صمت والدها لبرهة ثم قال

-فلتحضري هاتفي يا علياء لعلها تكون فكرة جيدة

بحثت وردة عن هاتف والدها لكنها وجدت أنه في دواصة السيارة شاشاته مهشمة من شدة الارتطام بالسيارة

فألقي به أرضاً، بغضب، حتى طوق نجاتنا الوحيد قد بات مهشماً، أمه وهي تنظر لأشرف

-لقد سافرنا عشرات المرات مع سائقين من أقاربنا ولم نصب بمكروه
اقترب إلى جلستهم أشرف وهو يضع يده وراء ظهره وبركناً يثور بداخله
-يا أمي أريد أن أبلغكم أن سيارتي أقودها في هذا الطريق يومياً منذ عشرة
سنوات، لم أتأخر يوماً عن ميعادي، أو حتى تصاب سيارتي بخدش بسيط
اقتربت مريم منه وهي تمد بيدها الهاتف إلى أخيها

-تفضل يا أخي لازال يمكننا الاتصال بهاتفي

نظر إليها أخيها لم يلفظ بكلمة، أخذ من يدها الهاتف برفق، والتف بوجهه
نحو وردة

-كيف يمكنني الحصول الآن على أرقامهم من الهاتف المهشم

-لدي فكرة يا أبي، فلتبدل شريحتك في هاتف عمتي وستتمكن من إيجاد
أرقامهم بسهولة

لمعت عيناه وتنهد برفق

-إذا فلتفعل أنت ذلك لم أعد أقوى على فعل شيء

التقطت وردة الهاتف من والدها، وبدأت في تبديل الشرائح ثم أعطت لوالدها الهاتف، بدأ في البحث عن من سيحدثه، أيهم سيستيقظ في هذا الوقت المبكر الساعة لم تتعدى السادسة، لكن هذا أمله الأخير

وقعت عينه على رقم لابن عمه الأقرب مراد، الهاتف يرن للمرة الأولى بلا إجابة، فاتصل للمرة الثانية دون جدوى، لكنه لم ييأس واتصل للمرة الثالثة، رد مراد

-من المتصل

-عذرا مراد لقد اتصلت عليك في هذا الوقت المبكر لكن إذا علمت سبب الاتصال ستعذر أخالك

-من، محمد، لا تقل هذا يا رجل، لقد اشتقنا لك كثيراً لماذا لم تأتي للقرية بعد لقد بدأت الإجازة

بدأ محمد يقص على ابن عمه ما حدث، وهو يستمع في ذهول

-كيف يحدث لك كل هذا دون أن تعلموا أو تهاتفوا أحداً منا

-لم يكن في مقدورنا أن الامر سيزداد سوءاً يا مراد

-لا عليك يا أخي سأذهب في الحل لأستقل سيارة كي توصلكم إلى الديار سالمين

محمد يسمع كلماته وكاد يرقص فرحاً

-هل أنت محقا يا مراد؟، هل ستأتي لنا حقاً

-قال نعم أخي وهل سأتركك تعاني ثانيةً في الصحراء

-شكراً لك يا مراد، ولا تؤاخذني إن أيقظتك من غفلتك

أغلق محمد الهاتف وعيناه تشع فرحاً

-سيأتي من يُقلنا إلى القرية

نظر إليه أشرف في دهشة

-وما لك بكل تلك السعادة يا محمد تباعد القرية عن طريق الكُريّمات أكثر من خمس ساعات تقريباً، كيف لنا أن ننتظرها هنا، ومن يدري هل ستلحق بنا الذئاب مرة أخرى، أم أن مطايرد الجبال سيصبحون أشد شراسة من معارفك في المرة السابقة

تركهم وجلس بعيداً يستند على ذلك السور الصخري وأغمض عينيه قليلاً لعلها تكون آخر نظراته، هكذا تمنى أشرف ربما في نهايته حل لغز تلك الرحلة

جلسوا يفكرون كيف لهم أن ينتظروا لخمس ساعاتٍ أخرى في تلك الصحراء، حتى وقت الظهيرة، وأين يستظلون بعيداً عن أشعة الشمس الحارقة، أين ساترهم، كيف لهم أن يتحملوا حرارتها وهم بتلك الملابس الثقيلة، لم ترحمهم تلك الشمس حتى في أيام الشتاء القارس

بدأت المياه تنفذ لم يتبقى سوى زجاجة واحدة، وتلك الأطفال التي تتلوى كي تدخل دورة المياه، إن كان الكبار بمقدورهم الصبر أكثر من ذلك، كيف لهم بالصبر لعدة ساعات أخرى لا يعلمها إلا الله، ووسط كل هذا صاحت ليلي للمرة الأولى

-لماذا لا نقيم كل محاولتنا قبل أن تأتي سيارته، هيا بنا نقف لنلوح للسيارات التي ستمر بجوارنا لعلنا نجد أحدهم يقلنا حتى بالأموال إلى القرية

لم يأبه أشرف لكلمات الفتاة ولم يتحرك حتى من مكانه تركهم يحلوا القضية بمفردهم، لكنهم قد لبوا ما لفظته ليلي، ربما تكون في فكرتها النجاة

وقفوا يلحون للسيارات، كلما شعر أحدهم بالتعب جلس، وظلوا يتناوبون بالوقوف وطلب المساعدة حتى مل الجميع وأخذت أشرف غفلةً طويلة بعد أن لف شاله الأبيض على وجهه، وغط في نوم عميق

هلكت أجسادهم من تلك الحرارة المنبعثة من الشمس بدأ الأطفال في طلب الماء بكثرة، نفذ الطعام، ظمأهم بات يلاحق تلك الوجوه التي تتصبب عرقاً، تتشوق لنسمة هواء، تقلل من تلك النيران المنبعثة من عروقها أنزل كل منهم حقيبة وجلس عليها الأطفال يلعبون حولهم، مرت أكثر من أربع ساعات دون أن تأتي السيارة حتى أنتفض محمد حينما رن ذلك الهاتف الذي لازال ممسكاً به وقف الجميع ورد محمد

-محمد كيف حالك

-مراد؟

-أين أنتم الآن، وما لون سيارتكم، إننا صرنا في صحراء الكريمات لكنني لا أراك

-هل أنت تمازحني مراد

-لا يا أخي نحن بالفعل بالقرب منك، وقد أحضرت ميكروباص كي يقل العائلة والسائق إلى القرية، لكن أخبرني ما هي لون سيارتك

-إنها بيضاء، بيجو بيضاء

-نعم نعم أخي لقد رأيناها

صاح محمد

-لقد أتى مراد، انهضوا هيا كي يراني

صرخ الجميع وارتموا بين أحضان بعضهم البعض، دموعهم تزرِف فرحاً، وعيونهم تنتظر بشغف أن تعبر نحو الميكروباص على الجانب الآخر من الطريق

تلاحق نظراتهم السيارة بكل خطوة تخطوها حتى تنفسوا الصعداء حينما توقفت بجوارهم ونزل منها السائق وقريبهم مراد

أحتضن مراد محمد بشدة

-لا تؤاخذني أخي تأخرت عليك قليلا

فابتسم محمد وهو يقول

-لا عليك يا رجل نحن ننتظر في الصحراء منذ ما يقرب اليوم، لقد أتيت أسرع مما توقعنا

بدأ مردا والسائق بمساعدة الجميع على الركوب ثم حملوا الحقائب ووضعوها في تلك الكراسي الفارغة، وبعد ان ركب محمد صاح

-أشرف كدنا ان ننساه لازال نائماً هنا

نزل مراد ومحسن وبدأوا في إيقاظه

-أشرف، أشرف، هيا استيقظ كي تذهب معنا

هو بين النوم والاستيقاظ، لكن لا يصدق ما يسمع، معقول أم أني لازلت أحلم

-أشرف هيا ستتحرك السيارة، هيا لقد أحضرت لسيارتك عجلة أخرى كي تبدلها ويأتي أي شخص لقيادتها عوضاً عنك

انتفض من مكانه أشرف ووقف يشاهد في ذهول وتساءل

-من أنت، ومن أين أنت هذه السيارة ومتى ركب الجميع هكذا؟

-لا عليك يا أشرف هيا بنا كي أساعدك على تغيير العجلة

بدلوا عجلة السيارة وبدأ أشرف في تشغيلها فعمل محركها ابتسم حينها، لكن محمد أشار إليه

-هيا يا رجل فلتذهب معنا كما بدأنا الرحلة سوياً

-لا يا محمد سأذهب كي أصلح ما تهشم من سيارتي، وسنتقابل بإذن الله حينما نعود سالمين، فلتصحبكم السلامة

ودع محمد السائق وكادت عيناه تسيل دمعا لكنه تمالك نفسه وربطاً على يده، وهمس في أذنه

-أرجو ألا نكون سببا في ذلك اليوم السيء الذي مررت به أنت وسيارتك
فابتسم أشرف

-لا يا أخي إنه قدرى بكم ومع غيركم كنت سأراه

ابتعد أشرف وقاد سيارته، وبدأ السائق في تحريك السيارة وأغلقت مريم
الباب، رددوا جميعا الشهادة، أملين من ربهم أن تمر رحلتهم بسلام في تلك
المرة

سارت بهم لساعتين متواصلتين، وفجأة اهتزت بهم بقوة، فاقتلعت قلوبهم،
اعتذر السائق، لا عليكم إنه مطب اصطناعي لم التفت إليه

ارتخت أجسادهم نحو المقاعد وأغلقت وردة عينيها لبرهة، ثم تأملت تلك
البيوت المتناثرة في الصحراء ذات الطوب الأبيض، وبعد أن بدأت تدرك
بعينيها أسوار مدينة أبو تيج

همست إلى ليلي بهدوء

-انظري

-ماذا بك يا وردة

ألا ترين أن كل شيء يتلاشى من حولنا كالرماد
ابتسمت ليلي بسخرية

-عزيزتي لقد أنهكت الرحلة، استريحى قليلا

ابتسمت وردة في هدوء وهي تقول

-لا عليك فلعلها أوهام خُيِّلَت إلي

ثم غطت وردة في نوم عميق....

تمت بحمد الله ...

إلى اللقاء في الرحلة القادمة

متاهة الذكريات

للتواصل مع الكاتبة عبر الفيسبوك

[masria73@Facebook.com](https://www.facebook.com/masria73)

أو عن طريق الإيميل

masria73aeg@gmail.com